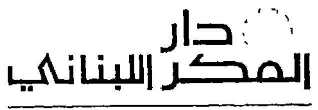
موسوعة الأديان
السماوية والوضعية

أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام

د . سميح دغيم

دار الفكر اللبناني
بيروت



للطباعة والنشر

كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان

هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢

ص.ب: ٤٦٩٩ فاكس: ٦٣٠٧٥٧

الطبعة الأولى ١٩٩٥

تمهيد

ملاحظات أوّلية يجب التنبيه إليها قبل الدخول في صلب الموضوع المطروح:

١ ـ من ناحية المصادر والمراجع التي توثق للموضوع، فهي قليلة ونادرة وغير جامعة وغير محدّدة. ومن خلال توثيقنا لها لم نعثر على أي جديد في العقد الثاني من هذا العصر. فقد اقتصرت المعلومات على ما هو موجود في ثنايا كتب المؤرخين وكتب الأدب والشعر. ولا نعرف في ما نعرفه أن هناك معلومات جديدة اكتشفت حديثاً ولا سيما على صعيد المخطوطات والوثائق أو الحفريات الأثرية، والتي قد تنبئنا عن وجود معابد وهياكل ورسوم ونقوش لها دلالاتها على صعيد المعتقد وأنماط التدين والتعبد.

٢ ـ ما هو الجديد الذي يمكن أن يضيفه هذا الكتاب إلى ما هو موجود ومتداول الآن. في الحقيقة هناك دراستان قيمتان في هذا المجال، الأولى متقدمة في الزمان وهي دراسة الدكتور محمود سليم الحوت «الميثولوجيا عند العرب»[1]، حاول فيها إثبات وجود الأسطورة عند العرب. أمّا الدراسة الثانية،

---

(١) د. محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الإسلام، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ط ٢. الطبعة الأولى ١٩٥٥.

فهي للأب جرجس داود داود «أديان العرب قبل الإسلام» وهي تختلف عن الأولى في الخلفية الفكرية المتحكمة بتوجه كل منهما. بيد أن ما لاحظته في الدراستين هو اعتمادهما تقريباً على نفس لائحة المصادر والمراجع، إن لم يكن بالإجماع ففي الغالبية المطلقة. ماذا يعني ذلك؟ إن الفارق الزمني بين الدراستين مهم، فهو ما يقارب الربع قرن من الزمان، ومع ذلك لم أرَ جديداً مهماً في مصادر كتاب الأب جرجس داود. وعليه فإننا لا ندعي أننا سنقدم جديداً في هذه الدراسة على صعيد التوثيق والمعلومات، بل ربما جل ما نستطيع تقديمه قراءة مغايرة للنصوص علنا نجد في ثناياها ما ينبهنا إلى آفاق جديدة لم تطرح من قبل.

٣ ـ ما هو الهدف المتوخى من هكذا نوع من الدراسات في عصر بدا للبعض فيه أن الزمان قد تخطاها، وأنه علينا أن نتوجه نحو الوضعيات أكثر وأكثر بدلاً من الاستغراق في الماضي السحيق. بيد أن ظهور ما يُسمّى بعلم الأنتروبولوجيا والإثنولوجيا والأركيولوجيا وغيرها، وإسهامات هذه العلوم في الكشف عن بعض خفايا السلوك البشري اليوم، ربما شكل التأسيسات الأولى لمنطلقات الفكر في حفرياته الأساسية التي تقبع في الأعماق (الموروث).

(١) الأب جرجس داود داود: أديان العرب قبل الإسلام، ووجهها الحضاري والاجتماعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٩، ط ٢.

مقدمة

لماذا العنوان: «أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام»؟

قصدنا التمييز بين الدين والمعتقد عند العرب قبل الإسلام، لتبيان:

١ ـ أديان الوحي السائدة آنذاك.
٢ ـ المعتقدات غير الموحى بها.

إنَّ في هذا التمييز اصطناع منهجي قسري، فرضته ظروف الدراسة، ومقتضيات زمنية تاريخية. ونحن نذهب إلى اعتبار أن لا تمييز في الأساس بين الدين والمعتقد. جل ما في الأمر، أنّ هناك ديانات سماوية قُيِّد لها الانتشار وبلوغ الجزيرة العربية (المسيحية واليهودية...)، فانصاغت عند شعوب تلك البقعة الجغرافية كلٌ بحسب خلفياته ومعتقداته الفكرية. إذن هناك معتقدات أي طرق تفكير وآفاق تفكير، وبنى ذهنيّة هي التي تستوعب وتبني وتصيغ. وعندما يتمكن الدين الموحى به من ذهنية شعب ما أو مجموعة بشرية ما، يصبح طريقة تفكير ومنحى تفكير، أي معتقداً. من هذا المنحى يندمج الدين مع المعتقد.

لن أخوض هنا في التفسيرات اللغوية والأثيمولوجية للفظة دين ولفظة معتقد، فإن ذلك سوف يستغرقنا في مباحث جانبية لا نسعى إليها. وإذا كان البعض يرى في المُعتقد مرحلة عدم ثبات وترجرج، انطلاقاً من أن لفظة اعتقاد لا ترقى إلى مستوى اليقين العلم، إلاّ أن اعتقاد الشيء على ما هو به، يرقى إلى

مستوى اليقين العلم. وبذلك يمكن لنا من وجه ما، هو ما نسعى إليه أن نوفق بين المعتقد والدين، معتمدين الفصل المنهجي الدراسي للتمييز بينهما.

١ ـ الدين:

الديّان مشتقة من الدين، من أسماء الله الحسنى كما وردت في القرآن الكريم.

ومعنى الديّان القاضي والحاكم، وتعني أيضاً القهّار.

وعلى صعيد الإنسان، دان الناس أي قهرهم على الطاعة.

وقد تعني أيضاً لفظة دين، العادة والشأن، تقول العرب: «ما زال ذلك ديني وديدني أي عادتي»(١).

وقد يعني «السلطان والورع»(٢). وقد يعني أيضاً في أوسع معانيه «الطاعة»(٣) وفي تحليل لغوي آخر «الدَيْن»(٤).

وإذا ما انطلقنا من هذا المعنى الأخير، يبدو أن الدين هو ما اعترف به البشر طيلة تاريخهم، منذ وجود الخليقة بأنهم مدينون به للآلهة وقرارات الغيب وإرادات الآخرين غير المرئية. إن مفهوم الدين، والدَيْن، يرقيان إلى ذلك الإصرار الذي اعتمدته الشعوب المختلفة، على اعتبار أن علّة وجودها تتعلق بشيء آخر مغاير لها هي مدينة له في وجودها وصيرورتها(٥).

حتى الآن لا نزال نتعاطى مع المسألة من منطلق أنطولوجي، أي أيسي كينوني، وغالباً ما عُرِّف الدين انطلاقاً من هذا الفهم، كما هو الحال في تعريف شلير ماخر بأن الدين هو مجرّد شعور بالاعتماد على المطلق. أو كما يقول هافلوك اليس أنه مجرّد إحساس مباشر بالاتحاد مع العالم، أي ذوبان الفردية في

(١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤) يراجع لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، مجلّد (١٣) ص ١٦٦ ـ ١٧٠.

(٥) يراجع هنا مقالة: دين المعنى وجذور الدولة، مارسيل غوشيه، مجلة الفكر العربي، عدد ٢٢، ص ٣٢.

الكونية، بينما يرى شبنجلر أنه ميتافيزيقا نعيشها ونجربها[١].

أما في الإسلام، فإن الدين هو تكليف العبد عندما يبلغ، الشرائط والعبادات سواء على مستوى الفرد أو المعاملات الجماعية. ولن نخوض في مسألة الإيمان وشروطها، وكيف يمكن اعتبار الفرد مؤمناً مسلماً، إلاّ أننا يمكن أن نعتبر في الإسلام أن الدين هو منهج فكر وحياة.

وعليه، وبكل الاعتبارات التي تقدمت سوف نحاول معرفة ما ساد عند العرب من ديانات قبل الإسلام، مخصصين باباً قائماً بحد ذاته لدراسة الأديان السماوية الموحى بها.

المعتقدات:

الأصل اعتقد الشيء، أي صلب واستتر، واعتقد كذا بقلبه، وليس له معقود أي عقد رأي. وفي الحديث أن رجلاً كان يبايع وفي عقدته ضعف، أي في رأيه ونظره. واعتقده كعقده... قال سيبويه: وقالوا هدفي مَعقِدَ الإزار، أي بتلك المنزلة في القرب...[٢].

وعليه فإن الاعتقاد، والمعتقدات، هي ما تعاقد الناس على اعتباره قوة مؤثرة في حياتهم وسلوكهم وطرق تفكيرهم.

وعندما يتمكن الدين من شعب ما، كما ذكرنا في التمهيد، ويتحول إلى طريقة تفكير وسلوك بما يفرضه من عبادات ومعاملات، يصبح معتقداً. من هذا المنطلق فنحن نعتبر أنه لا تفريق بين الأديان الوضعية (المعتقدات) وأديان الوحي من حيث هي جذور تفعل فعلها في سلوك الناس. فنحن عندما نجسد الحقائق التي نعتقدها أو نؤمن بها، فإنها تصبح مرتبطة كلياً بكينونتنا العميقة،

(١) هذه التعريفات اقتبسناها من كتاب «لا نزاع بين الدين والعلم» الدكتور عبد الحليم عويس، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٠، ص ٩.

(٢) يراجع هنا لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، مجلّد (٣) مادة (خ ذ) ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩.

وبالتالي بشبكة الإدراك التي سوف تتحكم بكل وجودنا وسلوكنا.

فالأديان والمعتقدات، هي أيضاً أنماط لصياغات طقسية وشعائرية تساعد على دمج الحقائق الأساسية وصهرها في أجسادنا، لتتحكم بوجودنا كله[1].

بيد أن عدم التمييز على هذا الصعيد الذي تقدم، لا يعني أننا لا نقيم تمييزاً على مستوى المضمون ودلالاته ومفاعيله. فقط عدم التمييز يقع على مستوى أن الإنسان مشدود دائماً إلى قوى خارقة غيبية، إن كان ذلك على مستوى المعتقد الرأي أو على مستوى الدين الإيمان.

إن التمييز الفعلي يقع في المضمون، إنه يقع من وجه ما يحمله كلّ منهما من مفاعيل على صعيد الحياة والفكر. فالأديان السماوية، أو أديان الوحي، تطرح فكرة التعالي، فكرة الآخر المختلف كلياً عنا، الذي يعطي الحياة معنى وجودها، ويعطي الإنسان ورقة خلاصه ونجاته في الحياة الآخرة. إنه يطرح فكرة العالم الآخر الخالد، فكرة البعث والحساب. إنه يطرح سلوكاً معيناً هو الذي يؤدي إلى الخلاص. هذا السلوك هو الذي يصبح معتقداً، بمجرّد تجسده في حركات عملية.

أما الأديان الوضعية، أو ما يمكن أن ندرجه تحت «معتقدات»، فإنها تختلف من حيث دلالات مضامينها وأبعادها. صحيح أن بعضاً منها ينحو منحى التعالي من حيث افتراضه للقوى الغيبية، إلاّ أنّه لم يستطع أن يتفلّت كلياً من مسألة التجسد. لذلك افترض البعض وجود آلهة متعددة، كآلهة الحرب والشر، وآلهة الخير والحب، ورمزّوها بما يتناسب مع قوى إدراكهم.

ويمكن هنا استعارة التقسيم الشهير الذي قام به الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت في القرن التاسع عشر، لمراحل تطور التفكير البشري.

١ ـ **المرحلة اللاهوتية**: وهي المرحلة الأولى والتي لم يستطع فيها العقل

---

(١) محمد أركون، العلمنة والدين، دار الساقي، لندن، ١٩٩٠، ص ٢٤.

البشري أن يحيط بتفسير معظم ما يعترضه من ظواهر، فكان يرجعها دائماً إلى قوى غيبية تقف وراءها. فعندما يعجز العقل البشري عن الإحاطة بتفسير ظاهرة طبيعية معينة، يردها دائماً إلى قوى يعتبرها أقوى منه وهي التي تحيط بها. إنها قدَر من الله على صعيد أديان الوحي، وهي حضور مباشر للآلهة المتعددة، على صعيد الأديان الأخرى.

٢ ـ **المرحلة الميتافيزيقية**: وهي المرحلة التي بدأ العقل يحاول فيها الإحاطة بطبيعة الظواهر التي تطرح عليه، ولكنه بقي يسعى في تفسيرها إلى ما هو كامن وراءها. فأخذ ينتقل من المحسوس إلى اللامحسوس، من العيني إلى المجرّد.

٣ ـ **المرحلة الوضعية**: وهي المرحلة الأهم كما يعتبرها أوغست كونت، لأنها هي التي سمحت للعقل البشري بالإحاطة الفعلية بطبيعة الظواهر المعروضة عليه، وذلك أنه لم يعد يسعى في هذه المرحلة إلى التفتيش عن أسباب كامنة وراء الظواهر، متعالية عليها،- بل فقط عليه أن يتعاطى مع العلاقات المتفاعلة بين الظواهر. فلم يعد القانون هو ذلك الغيبي الكامن وراء الظواهر، ولم يعد هو المجرّد الذهني، بل المسألة أصبحت محصورة كلها في علاقات ملموسة بين الظواهر.

قصدنا من وراء هذا العرض، تبيان أن كل مرحلة تشير إلى بنية تفكير تتميز بها عن غيرها وإن كانت المرحلتان الأولى والثانية تشتركان في كثير من الوجوه، بيد أن المرحلة الأخيرة وهي المرحلة الوضعية تختلف جذرياً، وهي التي برأي أوغست كونت تسمح للعقل البشري بالانتقال إلى مستوى آخر من التفكير من حيث المنهج ومن حيث المضمون.

٤ ـ وإذا كان في ما تقدم قد أسهبنا في الحديث عن تبرير جزء من العنوان وهو أديان ومعتقدات، فإن تكملته «العرب قبل الإسلام» يفترض منا أيضاً تحديداً زمانياً وجغرافياً للشعب الذي نتحدث عن معتقداته وأديانه.

إن اللحظة التاريخية مهمة في تحديد بنية التفكير، كما أن البقعة الجغرافية هي أيضاً مهمة في تحديد الذهنيات والآفاق. صحيح أن التاريخ لا يرقى إلى بداية وجود البشر، ولكنه مُعبِّر فعلي عن بداية تحركهم، إنّه قراءة لذلك التحرك في الزمان والمكان. وكذلك الجغرافيا، فلم تعد تدرس في الأبعاد الطبيعية، بل أيضاً في أبعادها البشرية، من حيث أن الإنسان هو الذي يخلع أيضاً على الطبيعة معناها وهو الذي يتأثر ويؤثر فيها. من هنا تبدو أهمية الحيِّز والمجال الجغرافي والمكاني في تحديد الكثير من المسائل المتعلقة بمعتقدات وعادات وتقاليد الشعوب.

٥ ـ من هنا كان لزاماً علينا أن نقسم دراستنا هذه إلى عدة أبواب.

١ ـ **الباب الأول**: وفيه نعرض لجغرافية الجزيرة العربية، وهو الموقع المكاني الذي تواجد فيه العرب، مع الإشارة إلى تأثير البيئة في تكوين العقلية والذهنية. ثم ننتقل إلى دراسة مقتضبة لتاريخ هذا الشعب من خلال تفاعله وعلاقاته مع باقي الشعوب، ومن ثم نعرض لأهم تجمعاته السكنية (مدن ـ دول).

٢ ـ **الباب الثاني**: وفيه نعرض للديانات الموحى بها ومدى انتشارها بين العرب.

٣ ـ **الباب الثالث**: وفيه نعرض للمعتقدات السائدة آنذاك من ديانات غير موحى بها، بالإضافة إلى مظاهر العبادات والطقوس.

الباب الأول

جغرافية وتاريخية ومجتمعية

العرب قبل الإسلام

الفصل الأول

جغرافيا بلاد العرب

غالباً ما يطلق على البقعة الجغرافية التي تواجد عليها العرب، اسم جزيرة العرب. والحقيقة أننا لا نعرف بالتحديد مدى اتساع الرقعة الجغرافية التي انطلق منها العرب. فالرقعة تمتد بحسب انتقال المجموعات البشرية. وما وصلنا من تسمية جزيرة العرب هو في الحقيقة مرهون بحقبة زمانية معيّنة، لا ترقى لأكثر من ١٥٠ عاماً إلى ٢٠٠ قبل الإسلام. فكل التحديدات الجغرافية تقع ضمن هذه الحقبة الزمانية. ونحن نعلم اليوم أن العرب منتشرون في أصقاع تتعدى ما يُسمّى الجزيرة العربية. فلربما كان تاريخ التسمية وتحديد البقعة الجغرافية أمراً مهماً في معرفة بنية التفكير السائدة آنذاك.

وبلاد العرب عرفت عند اليونان والرومان باسم «عرابيا» ARABIA[1]، ولم تُعرف بكونها جزيرة أو شبه جزيرة. وهذا دليل على أن البقعة الجغرافية المعروفة لدى اليونان والرومان لم تكن تتسع لتصل إلى شواطىء البحر، وهو أيضاً دليل على أنّ هناك انتشاراً أوسع حصل فيما بعد أوصل المجموعات العربية إلى مدى جغرافي لامس شاطىء البحر من عدة جهات. بيد أن ما نعرفه عن بلاد العرب من خلال التاريخ اليوناني والروماني، لا يتعدى ذكر التسمية والإشارة إليها، مع بعض التقسيمات السياسية والطبيعية في القرن الأول

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، دون تاريخ، ج ١، ص ٦٤.

الميلادي، وبعض المعلومات الأخرى التي ترقى إلى القرن الخامس. ق. م.

أما المؤرخون العرب، فيعرِّفون بلاد العرب باسم الجزيرة العربية، أو شبه الجزيرة العربية وذلك «لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات القافل، من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد إلى عبادان»[1]. هذا الكلام يعني أن العرب كانوا قد بدأوا بالانتشار في أصقاع جديدة لم يكن لهم تواجد فيها من قبل.

كما أنّ ابن خلدون يذهب إلى نفس التسمية، ويعتبرها كأنها داخلة من البرّ في البحر «يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق، وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما»[2]. ويبدو أن ما ذكره ابن خلدون هو الأقرب إلى ما تعارف عليه المؤرخون من تحديد لجغرافية بلاد العرب في الحالة التي كانت عليها قبل قرنين من الزمان من ظهور الإسلام.

إن تشديدنا على الفارق الزمني بين المعلومات الواردة إلينا، ومحاولتنا معرفة جغرافية بلاد العرب عند المتقدمين في الزمان، قصدنا من ورائه التحديد الدقيق للبيئة الطبيعية وبالتالي للمناخ الفكري والمعتقدي اللازم عنها. أضف إلى ذلك تبيان أن قصور معرفتنا الواضحة بمعالم جغرافية بلاد العرب، وبتاريخ بلاد العرب، سوف ينعكس سلباً على الإحاطة الشاملة بكل معتقداتهم وأديانهم.

---

(١) الهمداني: كتاب صفة جزيرة العرب، نشره المؤرخ محمد عبد الله بن بلهيد النجدي، القاهرة ١٩٥٣، ص ٤٧. وهذا مقتبس من كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور السيد عبد العزيز سالم، ص ٦٤.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق الدكتور عبد الواحد الوافي، القاهرة ١٩٥٧، ج ١، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

لن تكون حدود ما سنقدمه من معلومات عن معتقدات العرب وأديانهم قبل الإسلام واسعة شاملة. إننا منذ الآن ننبه إلى أنّ هناك مرحلة متقدمة زمانياً لا نعرف عنها شيئاً من أحوال العرب، ولربما كانت هي المرحلة الأهم. فالاقتصار على ما وصلنا في الزمان المتأخر، هو اقتصار للبحث عن نتائج لمعطيات متقدمة.

إن الحالة التي هي عليها معتقدات العرب وأديانهم قبل الإسلام بقرنين من الزمان، تنم عن أن هناك مراحل أخرى قد سبقت. فالعرب من خلال تاريخ جاهليتهم، وهي التسمية التي اصطلح على إطلاقها على تاريخهم قبل الإسلام، كانوا في مرحلة متقدمة نسبياً على كل الصعد الاجتماعية والثقافية والسياسية، ولا يمكن أن يتم كل ذلك دون تراكم ما يسبقه وليس معروفاً لدينا.

طبيعة بلاد العرب:

تختلف الطبيعة من حيث التربة والمناخ في بلاد العرب، باختلاف الأجزاء المكونة لها، فالقسم الأكبر من البقعة الجغرافية التي تحدثنا عنها هو واحات وأغوار تتجمع فيها الأمطار، وهذا ما اصطلح على تسميته بالبادية. أما الوديان والمنحدرات فهي قليلة، وكثيراً ما تقع على الأطراف. وأمّا الجبال والتلال والأراضي الصخرية فإنها غالباً ما تقع شمالي غربي الجزيرة العربية على تخوم بلاد الشام، ومحاذاة ساحل البحر الأحمر.

وفي الغالب يبدو أن سطح جزيرة العرب يتجه انحداراً من الغرب إلى الشرق، وبين الغرب والشرق تقع مساحات شاسعة من الهضاب والصحارى والدارات[(١)].

ويمكن تقسيم طبيعة بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) فيليب حتى: تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط ٥، ١٩٧٤، ص ٤١.

١ ـ المناطق الصخرية في الشمال، أي جنوبي غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط.

٢ ـ المناطق الخضراء، وهي المسمّاة بلاد العرب السعيدة، أو اليمن السعيد.

٣ ـ المناطق الصحراوية، وهي تشكل غالبية الأراضي، وهي تتوزع في الشمال والوسط والجنوب. ونظراً إلى كون الأرض الصحراوية هي السواد الأعظم من بلاد العرب، فإنها تتنوع وتختلف من موضع إلى آخر.

١ ـ الحرّات:

وهي الصحراء ذات الحجارة السوداء المنخورة وكأنها محروقة بالنار. هذه الحجارة مستديرة الشكل، ومنها المستطيل، وهي جميعها تكونت بفعل ما قذفته البراكين من جوفها. هذه الأراضي كثيرة في بلاد العرب، وهي تمتد من شرقي حوران حتى المدينة.

٢ ـ الدهناء:

وهي الصحراء التي تمتد من صحراء النفود شمالاً إلى حضرموت جنوباً، ومن اليمن غرباً إلى عمان شرقاً. وتقدّر مساحتها بـ ٥٠ ألف ميل مربع، وتعرف الأجزاء الجنوبية منها بالربع الخالي. وهي أراض جافة وخالية من الأمطار والمياه، ومع ذلك فإذا حصل وسقطت فيها الأمطار نبت فيها العشب.

٣ ـ النفوذ:

وهي الصحراء التي تمتاز برمالها الناعمة اللينة والتي يصعب على المرء اختراقها، وتعلو كثبانها أحياناً نحو ١٥٠ م، وتمتد على مساحة كبيرة حيث يبلغ طولها حوالي ٤٥٠ كلم من الشمال إلى الشرق، وعرضها حوالي ٢٥٠ كلم من واحة الجوف إلى نجد.

ويقسم العرب بلادهم خمسة أقسام كبرى هي:

١ ـ **تهامة**: وهي أرض منخفضة، سميت بالغور، وهي تشمل الشريط الساحلي الموازي للبحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً.

٢ ـ **نجد**: وهي الهضبة الوسطى في شبه جزيرة العرب وأوسع أقاليمها. وتتخللها أودية كثيرة، وهي كانت أطيب أراضي العرب حيث ترنم الشعراء برباها ورياضها.

٣ ـ **الحجاز**: من حجز، وهو يمتد من نجد إلى أطراف العراق.

٤ ـ **العروض**: سُمّيت كذلك لأنها تعترض اليمن ونجد والعراق، وهي تشمل اليمامة والبحرين ومن والاهما.

٥ ـ **اليمن**: سُمّيت كذلك لتيامن العرب إليها. واليمنات من اليمْن والخير وهي منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض. وهي عرفت عند العرب بالأرض الخضراء.

أمّا من حيث المناخ، فإن الجفاف هو الذي يسود شبه جزيرة العرب. فالأمطار قليلة السقوط لا سيّما في أواسط البلاد. وقد تنحبس أحياناً لمدة طويلة فتؤدي إلى أضرار هائلة، حيث تجف الأعشاب فلا تجد الإبل مرعى لها، وقد يهلك الكثير من البدو وهم يفتشون عن المياه للشرب.

وفي المناطق الغربية والجنوبية، فإن الأمطار تتساقط بغير انتظام، مما يؤدي أحياناً إلى سيول جارفة، تحدثت عنها كتب المؤرخين مثل السيل الذي ذهب بعاصمة اليمامة.

بيد أنّ هناك أراضٍ خصبة كتلك الموجودة في بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب، وجبال الطائف قرب مكة، والمدينة المنورة في الشمال، واليمامة في الجنوب الشرقي.

إن أهميّة العوامل الطبيعية تبدو جليّة واضحة ليس فقط في مسألة تقسيم

العمل ووجوه المعاش وتكوّن المجتمعات، بل أيضاً في طبيعة التفكير وتكوّن البنى الذهنية وتفتح الآفاق المعرفية. وفي ذلك يعقد ابن خلدون فصلاً كاملاً في مقدمته، تناول فيه تأثير هذه العوامل جميعاً في ذهنية وعقلية وحتى بيولوجية الناس الذين يعيشون فيها. فمن الطبيعي جداً أن تختلف عقليات وذهنيات أهل البوادي عن أصل الصحراء، وأهل الجبال عن أهل السواحل. كل ذلك يتبعه تمييز في المعتقدات والأفكار التي يتبنونها، أو ما يمكن أن ينقادوا إليه بسهولة. فلذلك اختلفت المعتقدات من منطقة إلى أخرى وتباينت الأهواء والمعبودات - كلٌ حسب الظروف المحيطة به والمؤثرة فيه.

الفصل الثاني

التاريخ القديم لبلاد العرب

من الصعب علينا، بما هو متوافر بين أيدينا من مصادر ومراجع أن نعود إلى أكثر من قرنين من الزمان قبل الإسلام في التحدث عن تاريخ العرب. والمصادر التي يمكن الاعتماد عليها تنحصر في ثلاثة.

١ ـ في الأثريات والحفريات:

ويظهر ذلك من الآثار العمرانية، ومن بعض النقوش والمعابد والهياكل التي عُثِرَ عليها. ويركز ابن خلدون في مقدمته على معرفة أهمية عظم الدول والشعوب من خلال الآثار التي تتركها وهي تدل على علو كعبها في كل المسائل الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهي تدل أيضاً على قيمة العمل المبذول فيها، وعن رؤى وآفاق التفكير.

والحقيقة أن ما وصلنا من مدوّنات عن تاريخ العرب في الجاهلية لا يعدو بعض الروايات الخيالية والأسطورية، مع أن الكثيرين يذهبون إلى استبعاد وجود الأسطورة عند العرب[١]. لأجل ذلك غدت النقوش الكتابية أحد أهم المصادر في التعرّف على تاريخ العرب واستنباط مادة تاريخية منه[٢]. فقد عُثِر على

(١) يحرص الدكتور محمود سليم الحوت في كتابه: الميثولوجيا عند العرب، على تأكيد وجود الفكر الأسطوري بخلاف ما يذهب إليه الجميع. وهو عقد هذا الكتاب لإثبات هذه المسألة مع ما لها من أهميّة من ناحية استقراء بنية التفكير وذهنية المعتقد.

(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٤.

نقوش في جنوب اليمن، والقليل منها عثر عليه في شمالي بلاد العرب. والمهم في كل ذلك أن هذه النقوش وما ورد فيها من أسماء الملوك وألقابهم ودياناتهم شكلت المستند الأساسي الذي لا يرقى إليه الشك ولم تتناوله الروايات بالتضخيم والتحريف والمبالغة.

وهناك أيضاً الآثار الباقية كالحصون والقلاع وبعض العمارات. وهناك أيضاً التحف المعدنية والخشبية والخزفية والعملات المتداولة وغيرها[١].

٢ ـ في المصادر العربية المكتوبة:

منها القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب التفسير والسيرة والمغازي.

ففي القرآن الذي لا يرقى الشك إلى صحة ما ورد فيه عن أحوال العرب قبل الإسلام، ذكرٌ لكثير من معتقدات العرب البائدة ولأحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية. وفيه ذكر لشعوب انقرضت (عاد وثمود) وأخبار عن أهل الحبشة (أبرهة الحبشي) وأصحاب الأخدود (وهم أهل نجران النصارى).

وفي الحديث الذي دوّن أيام عمر بن العزيز الخليفة الأموي، أخبار عن نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية. وهناك أيضاً كتب التفسير أي تفسير القرآن الكريم وفيها تفسير لما أُغلِق فهمه في القرآن من إشارات وتنبيهات.

أما كتب السيرة والمغازي فقد تعرّضت لأخبار الجاهلية وخصوصاً تلك المتصلة بحياة رسول الله ﷺ، وخصوصاً كتاب سيرة ابن هشام، الذي يؤرخ فيه سيرة النبي والعرب، معتمداً على الروايات الشفوية وعلى كتاب مفقود في سيرة النبي لأبي عبد الله محمد بن إسحٰق.

---

(١) يراجع هنا الكتاب القيّم المعلومات لـ واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب. لقد عقد فصلاً عن القصور والحصون: ص ٢٧٧ ـ إلى ٣٠٢. وعن النحت والزخرفة ص ٣٠٢ ـ الكتاب: منشورات: مجد، بيروت ـ ط ١، ١٩٨١.

أما الشعر الجاهلي فيعتبر من أهم المصادر لتاريخ العرب قبل الإسلام. فهو يصوّر لنا أحوالهم الاجتماعية والدينية[١] وطباعهم وأخلاقهم.

٣ ـ في المصادر غير العربية:

منها التوراة والتلمود وفيها ذكر للعرب وتفسير لصلاتهم مع العبرانيين خصوصاً في: سفر حزقيال، وسفر المزامير، وسفر دانيال، وسفر عاموس.

وهناك بعض الكتب العبرانية التي تؤرِّخ لليهود وفيها ذكر للعرب وأخبار هامة عنهم وخاصة عن الأنباط الذي نزلوا فيما بين البحر الأحمر والفرات[٢].

أما المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية، فهي تعتمد على أخبار الرحالة والتجار آنذاك، وأيضاً على أخبار المحاربين الذين يقعون أسرى في الحروب التي كانت تدور آنذاك ثم يفرج عنهم. ومن أقدم ما وصلنا في ذلك هو ما ذكره «أخيلس» عام ٥٢٥ ـ ٤٦٥ ق. م، و «هيرودوت» عام ٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق. م. ومع أن هناك أهميَّة كبرى للتقدم التاريخي لهؤلاء، إلاّ أن معلوماتهم جاءت عرَضية وغير دقيقة.

وهناك الجغرافي اليوناني «أسترابون» ٦٤ ق. م، الذي ساهم في حملة الرومان على اليمن، قدّم وصفاً لأحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية. وكذلك أيضاً الجغرافي «بطليموس» الذي وضع كتاباً فيه وصف لأحوال العرب الاجتماعية والتجارية[٣].

أما المصادر المسيحية فهي الأقرب تاريخياً وقد تكون الأدق وصفاً، وأشهرها في هذا المجال ما كتبه «يوزبيوس» ٢٦٥ ـ ٣٤٠ م، وما كتبه صاحب كتاب تاريخ الحروب «بروكوبيوس» مؤرخ القائد البيزنطي المشهور بليراريوس،

---

(١) يراجع هنا كتاب: الدكتور صادق مكي، ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، دار الفكر اللبناني، ط ١، ١٩٩١.

(٢) الدكتور عبد العزيز سالم. تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٠ م. م.

(٣) نفس المرجع: ص ٤١.

عن حروب الغساسنة والمناذرة، وحملة الأحباش على اليمن.

قصدنا من تعداد مصادر تاريخ العرب تبيان عدة أمور وهي:

أ ـ أن بعض هذه المصادر قريب العهد بالإسلام.

ب ـ أن بعض هذه المصادر مما لا يرقى الشك إليه كالنقوش والحفريات والكتب المنزلة.

ج ـ أن بعض هذه المصادر المتقدمة في الزمان وخصوصاً اليونانية والعبرانية لا تحيط بكل الأحوال الموجودة آنذاك.

لذلك نعود لنؤكد ما ذكرناه في المقدمة، من أننا عندما نتعرّض لتاريخ الأديان والمعتقدات عند العرب، فإننا نعي تماماً أن ما لدينا من معلومات يمثل مرحلة متقدمة سبقتها مراحل أخرى ليست لدينا تفصيلات مهمّة عنها.

تاريخ شبه جزيرة العرب:

وردت لفظة عرب كما يذكر بعض المؤرخين بكثرة في الوثائق الأشورية والبابلية منذ القرن الثامن ق. م وذلك بصيغة ARIBI، و URBI، و ARBI بمعنى البادية الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين وهي بادية العراق[١]. ثم ظهرت اللفظة في النصوص الفارسية بمعنى البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيرة سيناء كما يذكر الدكتور جواد علي[٢]. ثم ذكرها اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد.

أما في المصادر العربية الأثرية، فقد جاء في النقوش السبئية المتأخرة (١٠٠ ق. م) ما معناه الأعراب، في حين كان أهل المدن يعرفون بقبائلهم ومدنهم.

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٢.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٣.

أما في القرآن فقد وردت لفظة عرب للدلالة على جنس بشري معين له كيان خاص به.

لن نطيل البحث في هذه النقطة لأن ما قصدنا إليه هو تبيان فقط ما إذا كانت شبه الجزيرة العربية قد اقتصرت في سكانها على ما يُسمّى العنصر العربي. أم أن هناك شعوباً أخرى من غير الجنس العربي قد وطأت أرض شبه الجزيرة العربية وكان لها معتقداتها ودياناتها والتي ربما أثرت من وجه أو من آخر على معتقدات وأديان العرب قبل الإسلام.

والحقيقة كما يقول بعض المؤرخين أن شبه الجزيرة العربية كانت خزاناً لاندفاعات شعوب مختلفة استوطنت فيها، ثم انطلقت منها نحو أصقاع أخرى. وفي هذا الصدد لا بد من كلمة حول ما يُسمّى الشعوب الساميّة.

فالساميّة ليست عرقاً، إنما هي اصطلاح أطلق على مجموعة شعوب تتكلم بلغات متقاربة مأخوذة من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة. هذه اللغات ترجع إلى أصل لغوي واحد، فتتشابه في أصول أفعالها وأزمانها وفي كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد[1].

من أين تأتي الشعوب الساميّة؟ أين هو موطنهم الأصلي؟ تعددت الإجابات[2] على ذلك ولكن المهم أن جميع الباحثين متفقون على أن موطنهم كان في شبه جزيرة العرب وفدوا إليها من جهات مختلفة، ثم هاجروا على موجات وفترات متباعدة بسبب جدب أرض شبه الجزيرة، وخصب ما حولها. فالبابليون والأشوريون خرجوا إلى العراق في الألف الرابع ق. م، وعاشوا تحت حكم السومريين. ثم ما لبثوا أن أسسوا دولة لهم في الألف الثالث ق. م،

---

(١) دكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف مصر، ط ٣، ١٩٦٠، ص ٢٢.

(٢) راجع ما يقوله الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي: ص ٢٢ ربما شمالي أفريقيا وربما الأربين في أواسط آسيا، وربما شمالي سوريا، وأيضاً ربما بلاد ما بين النهرين.

امتدت حتى بلاد الشام والجزيرة. ثم كانت دولة بابل في الألف الثاني ق. م. ثم بعد ذلك وفد الحيثيون من آسيا الصغرى وخربوا بابل. ثم عاد الأشوريون للنهوض مجدداً في بلاد ما بين النهرين، ثم استعمروا الشام وآسيا الصغرى وحاربوا مصر. ثم جاء الميديون في القرن السابع ق. م. واستولوا على الدولة الأشورية فتحررت بابل منهم وأنشأت دولة جديدة هي دولة الكلدانيين. ثم جاء الفرس وقضوا على الكلدانيين أيام كورش العظيم. هذه هي الموجة السامية الأولى التي خرجت من شبه الجزيرة العربية.

أما الموجة الثانية فكانت في أوائل الألف الثاني ق. م، حيث خرج الكنعانيون واتجهوا شمالاً ونحو الساحل حيث أسسوا المدن، وأسسوا لهم مستعمرات في أفريقية وآسيا الصغرى[1]. ثم انقسموا مجموعات منها العبريون الذي استقروا في فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق. م، ثم تركوها بعد أن خرّب لهم ملك بابل بختنصر حاضرتهم أورشليم في القرن السادس ق. م.

أما الموجة الثالثة فكانت في منتصف الألف الثاني ق. م، حيث خرج الآراميون وهم بدوٌ رحل كانوا يتنقلون في الصحراء بين باديتي الشام والعراق. وقد كوّن الآراميون لهم إمارة بين بابل والخليج العربي عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين[2]. ثم قويت شوكتهم في القرن الثالث عشر ق. م واستولوا على أراضي الرافدين دجلة والفرات، ثم أغاروا في القرن الحادي عشر ق. م على شمالي الشام وأسسوا دويلات لعبت دوراً مهماً على صعيد التجارة والثقافة واللغة. ثم ما لبثت أن انهارت دولتهم على يد الأشوريين، ولكنهم كانوا الأكثر تأثيراً من ناحية اللغة، حيث انتشرت لهجتهم ولغتهم نظراً لسهولة أبجديتها (هي التي كتبت بها الأناجيل في بداية الأمر) وهي لغة السيد المسيح.

---

(١) كان اليونان يسمون هذه الشعوب بالفينيقيين: راجع كتاب شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، ص ٢٤ م. م.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٤.

أما الموجة الرابعة فكانت أيضاً في أواخر الألف الثاني ق. م واتجهت جنوباً ونحو ساحل المحيط الهندي.

هذه هي الموجات السامية التي خرجت مما سمّي فيما بعد بلاد العرب أو شبه الجزيرة العربية. ويبدو أن العرب[1] هم آخر موجة اندفعت من داخل شبه الجزيرة نحو الشواطىء والبلدان المجاورة. وعليه سنقصر بحثنا على هذه الموجة الأخيرة لمعرفة تاريخها من مختلف نواحيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

تاريخ العرب في شبه جزيرتهم:

يقسم العرب إلى ثلاث طبقات: العرب البائدة ـ العرب العاربة ـ العرب المستعربة.

الطبقة الأولى وهم الذين انقرضوا منذ أمد طويل بفعل العوامل الطبيعية كهياج البراكين وثورة الرمال الزاحفة. (عاد ـ وثمود. . . الخ).

أما الطبقة الثانية وهم العرب العاربة فهم المبتدعون للعروبة وينتسبون إلى قحطان أو يقطان الذي ورد اسمه في التوراة. وهؤلاء كان موطنهم اليمن أي ما سُمّي بعرب الجنوب.

---

(١) ورد في كتاب التيجان في ملوك حمير، نشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ط ٢، ١٩٧٩ ص ٣٧ ـ ما يلي: «ثم تبلبلت ألسنة الخلق فأقاموا بالمجدل وبأرض بابل يموجون ويعالجون اللغات، فسلبوا اللسان السرياني إلاّ أهل الجودي فإنهم لم يحتوج لهم لسان يتكلمون بالسرياني. وأجرى جبريل ﷺ على كل لسان كل أمة لغة فنطق الناس بالألسن العجمي والعربي وأفصح يعرب بالعربية. . . وأمّا عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق ورائش فإنهم نطقوا مع ابن عمهم عابر بالعربية. . . وكانوا كذلك إلى حين والناس إذ ذاك ببابل.

وقال وهب: ولما تغلب المتعربون من ولد سام بن نوح على الناس ببابل وطغوا عليهم وعاثوا فيهم، بعث الله إليهم أخاهم هوداً نبياً. . .».

أما الطبقة الثالثة أو العرب المستعربة فينتسبون إلى عدنان ابن أدد. . . بن إسماعيل بن إبراهيم. وقد سمّوا بالعرب المستعربة لأن إسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية، فلما صاهر اليمنية تعلم العربية.

مهما يكن من أمر هذا الانقسام عند العرب ومهما كانت مبرراته والاختلاف بين المؤرخين في تأويلاته وإسناداته، فإننا سنتبع تقسيماً جغرافياً طبيعياً فنقول عرب الجنوب وعرب الشمال. وهذا مما لا خلاف عليه بين المؤرخين.

١ ـ عرب الجنوب:

القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية هو الأخصب، ولذلك يعتبر البعض أن تسمية اليمن جاءت من يُمْن الأرض وخيراتها، وهي عُرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة لوفرة أشجارها وأثمارها.

والحقيقة أن عرب الجنوب نهضوا بحضارة عريقة لا تزال آثارها ماثلة إلى أيامنا هذه.

ومن مآثرهم في ذلك تشييدهم سد مأرب لحبس مياه الأمطار، مما يفيد أنه كان لديهم أنظمة محكمة ومدروسة للزراعة والري وتوزيع المياه.

وكذلك كانت تجارتهم رائجة مع بلاد الشام والعراق ومصر والحبشة ومع بلاد الهند ورقيق أفريقيا.

وبقيت المعلومات عن عرب الجنوب قليلة في كتب المؤرخين، إلا تلك الإشارات التي وردت عنهم في كتب العهد القديم وبعض الآثار المصرية والبابلية والأشورية وفي كتب المؤرخين والجغرافيين اليونان والرومان، وبعض ما كتبه عنهم العرب بعد الإسلام. أمّا ما ساعد على اكتشاف بعض معالم تاريخهم فيعود إلى تلك النقوش المنثورة على الأبراج والهياكل والنصب والأحجار والتي اكتشفها بعض علماء الغرب في أواسط القرن الماضي. ومن

خلال هذه النقوش استطاع البحّاثة أن يطلعوا على حضارة العرب الجنوبيين بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها[1].

فمن الناحية السياسية، كان هناك خمس ممالك:

أ ـ المملكة المعينية:

وهي أقدم مملكة عربية معروفة (١٣٠٠ ـ ٦٣٠ ق. م) في التاريخ. قامت هذه المملكة في الجوف أي في المنطقة الواقعة بين نجران وحضرموت. أحصى بعض المؤرخين ٢٦ ملكاً من ملوكها، وبعضهم أحصى ٢٢ ملكاً، مستندين في ذلك على النقوش التي عثروا عليها.

اشتهرت هذه المملكة بالتجارة، وشمل نفوذها السياسي شمالي الحجاز، وأدى توسع المعينيين في الشمال إلى احتكاكهم بالأشوريين والفينيقيين والمصريين.

ومما عُثِر من نقوش الكتابات المعينية في الجوف، أن الضرائب كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع: لخزانة الملك، وللمشايخ والحكام، وللمعابد. وضرائب المعابد نوعان: نوع تقدمه القبائل للآلهة تقرباً منها، ونوع إجباري كان يُفرض على الأفراد، يقال له عشر[2].

ب ـ المملكة السبئية:

ورد اسم سبأ في التوراة، وأن ملكتها زارت سليمان في أورشليم[3] ـ كما أن اسم السبئيين ورد في النقوش الأشورية[4]. وكذلك ورد في القرآن الكريم ذكر ملكة سبأ في سورة النمل (٢٧) الآيتان ٢٢ ـ ٤٤).

---

(١) دكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، في العصر الجاهلي، م. م. ص ٢٧.
(٢) الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٤٠٦.
(٣) سفر الملوك الأول، إصحاح ١٠، آية ١، ٢، ص ٥٥١.
(٤) راجع كتاب الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٧.

والسبئيين يعودون في نسبهم إلى قحطان، وهم في الأصل من البدو المتنقلين بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها. وأخيراً استقروا في الجنوب وأخذوا يتوسعون على حساب المعينيين الذين ضعفوا، حتى أسسوا المملكة السبئية عام ٨٠٠ ق. م، وجعلوا حاضرتها مأرب نسبة إلى أصل موطنهم أريبي أو يارب[١]. وتشير النقوش السبئية إن أول رؤساء سبأ المقدسين هو «سمه» حيث يظهر في نقش وهو يقدم البخور نيابة عن شعبه إلى الإله المقه، إله القمر[٢].

ج ـ المملكة الحميرية:

تأسست هذه المملكة في الربع الأخير من القرن الثاني ق. م على يد آل شرح يخصب الذي يُنسب إليه بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن.

ويبدو أن هذه المملكة مرّت بمرحلتين: آخر ملوك المرحلة الأولى هو «ناشر النعم أو ياسر ينعم» ويرجعون عهده إلى أيام سليمان في القرن الثالث م. وقد عُرف الحميريون عند العرب بالتبابعة. أما المرحلة الثانية فقد بدأت من القرن الثالث الميلادي وحتى السادس منه. وقد ورد ذكر مؤسس هذه المرحلة في القرآن ﴿**أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم**. .﴾[٣]، أي تبع الأكبر الذي زحف بجيوشه حتى وصل إلى أرمينية ومن ثم إلى سمرقند. بيد أن، بعد وفاة هذا الملك غزا الأحباش بلاده واستولوا على جنوب اليمن. هذا الاحتلال لم يدم طويلاً، فقد اعتنق الأمبراطور الجديد للحبشة الدين المسيحي وقامت عليه الثورات فانشغل بإهمادها مما أتاح للحميريين إعادة السيطرة على اليمن.

وبعد انتشار المسيحية في الحبشة وتحالفها مع بيزنطة حامية المسيحيين في الشرق، عاد الحبشيون لغزو اليمن من جديد لتأمين طرق تجاربتهم، ولوضع

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ١٠٦.

(٢) الدكتور عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ١٠٩ م. م.

(٣) سورة الدخان، ٤٤، آية ٣٧.

حد لنفوذ الملك الحميري «ذا نواس» الذي ربط بين انتشار المسيحية ونفوذ الأحباش السياسي. والحقيقة أن ملك اليمن هذا وكان على دين اليهودية، قد تعسف ضد المسيحيين وهاجم نجران أكبر معقل للمسيحية في اليمن عام ٥٢٣ م، وقام بقتل أهلها وإحراقهم ورميهم في أخاديد. هذا ما أثار حفيظة الأحباش فاستأذنوا قيصر بيزنطة مهاجمة اليمن، فأذن لهم لأجل إنقاذ المسيحية. بيد أن يهودية ذا نواس ملك اليمن لم تكن ثابتة بالمطلق ويرجح أنه كان وثنياً وأنه كان يتحامل على النصارى دون اليهود، لأن انتشار النصرانية كان يعني انتشاراً سياسياً للأحباش.

بقيت اليمن تحت سيطرة الأحباش، ونصّبوا عليها أميراً مسيحياً من الحميريين. بيد أن أخبار الرواة العرب تختلف عن ذلك. ومهما يكن من أمر ذلك، فإن اليمن قد عرفت انتشاراً للمسيحية واليهودية والوثنية أيضاً، وهذا ما نود أن نركز عليه في هذا الكتاب.

ولم يكن الأحباش فقط هم الذين طمعوا في اليمن بل أيضاً الفرس الذين استولوا عليها بعد انقراض الأحباش منها. لكن لا نعرف فيما نعرفه أن الفرس نقلوا إليها عاداتهم وطقوسهم وشعائرهم، بل اهتموا فقط بالمسألة التجارية والاقتصادية.

٢ ـ عرب الشمال:

وإذا كان عرب الجنوب ينتسبون كما ذكرنا إلى يقظان أو قحطان، فإن عرب الشمال أو العرب المستعربة ينتسبون إلى العدنانيين الذين كانوا يسكنون في الحجاز ونجد وتمتد قبائلهم إلى باديتي الشام والعراق[1]. وقد ظل هؤلاء يعيشون حياة بداوة وتنقل نظراً لطبيعة الأرض المجدبة التي تواجدوا عليها، بخلاف أرض اليمن الخصبة.

بيد أن حياة الترحال هذه لم تمنعهم في بعض الأزمنة من إنشاء مملكة

---

(١) الدكتور شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ج ١، ص ٣٠ م. م.

لهم بالجوف التي تقع في أقصى الشمال بين العراق والشام. لكن هذا لم يمنع عرب الجنوب من إقامة بعض المستعمرات في الشمال، منها مستعمرة «العلا» شمالي الحجاز، وكانت تسمّى «معين مصران» وهي تابعة للدولة المعينية وسكانها من الجنوبيين الذين نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة. وبقي هذا الوضع قائماً، حتى نشأت دولة الأنباط، ومن ثم دولة اللحيانيين. ثم نشأت مملكة تدمر شمالي بادية الشام في القرن الثالث م، وكان سكانها من الآراميين، إلاّ أن العرب ظهروا فيها بكثرة.

إذن لم يكن الشمال العربي غنياً كما هو حال الجنوب، لا من حيث الحياة الاجتماعية ولا الاقتصادية ولا حتى السياسية. ومع ذلك فإنه يمكننا أن نشير إلى بعض الممالك التي نشأت:

أ ـ مملكة الأنباط:

قامت هذه المملكة في شمالي الحجاز وتنسب إلى شعب من شعوب العرب، يُعرف عند اليونان باسم «النبط». وكان هؤلاء قد حلّوا في بادية الشام وجنوبي سورية في القرن السادس ق. م. وهم شعب غير معروف في المصادر العربية، لكن كتابات الإغريق أشارت إليهم، كما أن الحفريات الأثرية التي جرت في البتراء وحوران كشفت عنهم. ونظراً لصعوبة طبيعة الأرض التي تواجدوا عليها، سمّاها اليونان بلاد العرب الصخرية[1].

وأقدم ما وصل من تاريخهم هو ما كتبه ديودور الصقلي عن حروبهم مع حاكم سوريا اليوناني وهجومه على مدينة البتراء عام ٣١٢ ق. م. ومع حلول القرن الأول ق. م، أصبحت البتراء حاضرتهم أهم مركز تجاري يقع على تقاطع الطرق التجارية بين العراق شرقاً واليمن جنوباً وسوريا وفلسطين شمالاً ومصر غرباً.

من أشهر ملوكهم، الملك أريتاس الأول أو الحارث ١٦٩ ـ ١٤٩ ق. م،

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٥٩.

وأيضاً الحارث الثاني المعروف باسم إيروتيموس. أما أشهرهم على الإطلاق فهو الحارث الثالث الذي اقترن اسمه بفتوحات كثيرة تغلب فيها على السلوقيين واليهود.

ومع انهيار مملكة الأنباط عام ١٠٦ م على يد الأمبراطور الروماني تراجان، برزت مملكة تدمر. ومع ذلك بقيت البتراء مزدهرة اقتصادياً وانتشرت فيها المسيحية وأصبحت مركزاً إسقفياً حتى ظهور الإسلام.

ب ـ مملكة تدمر:

اختلف المؤرخون والبحاثة في تفسير اسم تدمر. منهم من اعتبرها «بلميرا» وهم اليونان، وكلمة بلميرا في اللاتينية تعني النخل، وأن المملكة سميت كذلك لكثرة نخيلها. وبعضهم يعتبر أن «بلميرا» ترجمة للكلمة العبرانية «تامار» وهي البلدة التي بناها سليمان وورد ذكرها في التوراة.

ومنهم من ينسب بناء تدمر إلى شخصية خرافية. لكن الدكتور عبد العزيز سالم يعتبر أن تدمر نشأت حول نبع ماء في البادية قصدها البدو واستقروا في واحتها.

وتاريخ تدمر قبل الميلاد غير معروف على وجه الدقة، وأقدم ما وصل منه لا يرقى لأكثر من قرن ق. م.

ومن المعروف أن تدمر دخلت تحت الحماية الرومانية عام ١٠٦ م، ومنحت درجة مستعمرة رومانية أيام كركلا الأمبراطور الروماني.

وبلغ أوج هذه المملكة، على يد أذينة بن حيران بن وهب اللات، ثم على يد ابنه من بعده أذينة الثاني الذي حارب الفرس وتغلب عليهم، حتى حصل من الرومان على لقب أمبراطور على جميع بلاد الشرق. ثم بعد وفاته خلفه ابنه القاصر وهب اللات، الذي تولت والدته زنوبيا الوصاية عليه. وشخصية زنوبيا مشهورة في التاريخ وكانت تسعى لإقامة أمبراطورية عظيمة. ويذكر المسعودي أنها كانت رومية وكانت تتكلم العربية، وبعضهم اعتبرها عربية من أهل بيت

عاملة من العماليق الذين كانوا في سليح[١]. وكانت نهاية زنوبيا على يد الرومان الذين توجسوا خيفة منها.

وكانت المسيحية قد انتشرت في تدمر في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، وأصبح فيها أسقفية. من أسماء أسقفيها، مارينوس، والأسقف يوحنا الذي ورد اسمه في سجلات أعمال مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م[٢].

وعرفت تدمر معظم الديانات التي عرفها العرب في سورية الشمالية وفي البادية، من عبادة أصنام معروفة عند العرب، وبعضها الآخر أرامي. أمّا أعظم آلهتها فهو الألهة الشمس، والإله بعل واللات وغيرها كثيرون.

ج ـ إمارة الغساسنة:

يُعتبر الغساسنة من أزد اليمن، وينتسبون إلى آل عمرو المعروف بمزيقياء. وهم نزحوا إلى بادية الشام قبل أو بعد حادثة سيل العرم. وتغلب الغساسنة على قوم يدعون بالضجاعمة وحلّوا مكانهم في مشارف الشام. وهناك الكثير من أمرائهم المشهورين أمثال الحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) الذي حارب المناذرة في مواقع عدة وتغلب عليهم. وكان الغساسنة يميلون إلى الروم، وكانت المسيحية منتشرة بينهم. وقد ورد في المجامع الكنسية، وحفظته الترجمات السريانية، ألقاب لأمراء الغساسنة، منها لقب البطريق الذي أطلق على الحارث، ولقب فلافيوس الذي أطلق على المنذر بن الحارث.

إن الصراع كان على أشده بين الغساسنة والمناذرة خصوصاً للسيطرة على البادية الواقعة جنوبي تدمر، أو كما يذكر «تلدكه» أنها الأراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس. فقد ادعى كل منهما أن قبائل العرب الضاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه[٣].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، دار الأندلس، بيروت ١٩٦٥، ج ٢، ص ٩٣.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ١٢٧.

(٣) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٠١ م.م.

ويبدو أن الحارث بن جبلة الغساني، كان على دين المسيحية وبالتحديد على المذهب المونوفيزتي. ويقال إنه ذهب إلى القسطنطينة وسعى في ما سعى إليه، إلى تعيين يعقوب البرادعي مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية ورفيقه تيودوروس أسقفين في المقاطعات العربية في سورية[1].

انتشر المذهب المونوفيزقي في بلاد الشام وبين قبائل العرب، ولم يُعجِب ذلك بيزنطة فساءت العلاقات بين المنذر بن الحارث والأمبراطور البيزنطي جستين الثاني ٥٦٥ ـ ٥٧٨ م وكانت بدايات الصراع بين الروم والغساسنة. وبعد القبض على المنذر بحيلة من حاكم سوريا الرومي الذي دعاه لحضور افتتاح كنيسة ثم قبض عليه وأرسله إلى بيزنطة، حيث نفي إلى جزيرة صقلية، بدأ عرب غسان يتفرقون خصوصاً أيضاً بعد القبض على النعمان خليفة المنذر. وانقسم الغساسنة إلى خمسة عشرة فرقة، بعضها دخل في خدمة الفرس، وبعضها رحل إلى بلاد الروم حيث اعتنقوا مذهب الطبيعتين في المسيحية.

ويعتبر الأخباريون العرب أن آخر أمراء الغساسنة هو «جبلة بن الأيهم» وهو دخل في الإسلام خوف العار واللطمة، ثم ارتد وخرج إلى بلاد الروم حيث عاد إلى تنصره وبقي هناك حتى هلك.

د ـ إمارة المناذرة:

كانت المنطقة المتاخمة لبادية العراق، والمنطقة المجاورة للفرات الجنوبي هدفاً لهجرة القبائل العربية في عصر الطوائف، أي فترة الانتقال من الدولة البارتية إلى الدولة الساسانية في بلاد فارس. ومن القبائل التي هاجرت، قبائل تنوخ الجنوبية، وذلك عقيب تصدع سد مأرب وقبل أو بعد سيل العرم. استقرت هذه القبائل أولاً في البحرين ثم انتظرت الفرصة المؤاتية للانتقال إلى جنوبي العراق، وإلى منطقة الحيرة والأنبار. هذه الأخيرة كانت لها شهرة تجارية وهي تأسست في القرن الأول الميلادي لخزن المواد والأقوات. أما

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٠٣.

الحيرة فهي مدينة قديمة تدل بعض النصوص على أنها قامت في عصر سابق للعصر الساساني، وبعضهم يرجعها إلى الملك الكلداني بختنصر مؤسس الأنبار في رأيهم.

من أهم ملوك الحيرة جذيمة الأبرش، وكان ملكه يمتد فيما بين الحيرة والأنبار. ويبدو أن جذيمة هذا كان وثنياً جعل من الفرقدين وهما صنمين نديمان له وسمّاهما الضيزنين، وكان يستسقي بهما ويستنصر بهما على العدو[1].

بعد جذيمة تولى عمرو بن عدي الإمارة على عرب الحيرة والأنبار. وعمرو هذا هو مؤسس إمارة اللخميين في الحيرة، وهو أول من اتخذها منزلاً من ملوك العرب. وعندما تأسست الدولة الساسانية أخذ ملوكها وخصوصاً «أردشير بن بابك»، يضايقون عرب الحيرة، فنزح كثيرون منهم إلى بلاد الشام. والحقيقة أن الحيرة[2] تمصّرت على يدي عمرو بن عدي، بعد أن كانت خراباً، ووفد إليها الكثير من قبائل العرب الجنوبية، منها عرب الضاحية والعباد والأحلاف. وإلى جانب القبائل العربية كان يقيم جماعة من النبط العراقيين، وجماعة من اليهود، وبعضٌ من الفرس.

وبعد عمرو بن عدي جاء امرىء القيس والذي قيل أنّه أول من تنصّر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس، ولقّبه البعض بمحرق العرب أو محرّق.

ويذكر الدكتور جواد علي أن لهذه الصفة (محرّق) علاقة بصنم يدعى محرّق تعبّدت له بعض قبائل العرب. وبعد امرىء القيس جاء النعمان الأول وهو أشهر ملوك المناذرة، وقد غزا بلاد الشام مراراً وأعمل فيها نهباً وحرقاً.

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ١، طبعة النجف ١٣٨٥، ص ١٦٩. مقتبسة من تاريخ العرب قبل الإسلام لعبد العزيز سالم، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) مدينة تقع على بعد ٣ أميال جنوبي الكوفة على موضع يقال له النجف.

والمهم أنّ في عهد النعمان بدأت المسيحية تنمو حيث اجتذبت جمهوراً كبيراً من عرب الحيرة.

ثم جاء بعد النعمان، المنذر بن ماء السماء، وقيل إن ملك الفرس دعاه إلى المزدكية فلم يقبل، فولّى مكانه الحارث بن عمرو الكندي الذي قبل اعتناق المزدكية. ولما تولى كسرى أنو شروان مُلْك الفرس، حارب المزدكية والزنادقة ورد المنذر إلى ملكه. وتختلف الروايات في ذلك، وفي ما إذا كان المعتقد هو السبب في تلك الأحداث[١]. ولكن مهما يكن، فإن المسيحية عادت وتعززت بين المناذرة. وتوالى ملك المناذرة، ومن مشاهيرهم النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٥)، صاحب النابغة الذبياني الشاعر المشهور. وقيل إن النعمان تنصر بعد أن كان وثنياً، ويعود فضل ذلك إلى عدي بن زيد الذي تولى تنشئته. ويذكرون أن إحدى بناته وهي «هند» عمّرت طويلاً حتى عاصرت الأمويين وربما الحجاج عام ٧٤ هجرية. وقيل أنها ترهبنت وسكنت ديراً لها في الحيرة، حتى أخرجها الحجاج منه، ثم عندما توفيت دفنت في نفس الدير إلى جانب قبر أبيها.

ويبدو أن آخر ملوك المناذرة وهو المنذر بن النعمان المغرور قد فرّ من الحيرة عندما بلغه نبأ خروج جيوش المسلمين، وأن خالد بن الوليد هو الذي توجه نحو الحيرة وافتتحها صلحاً.

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٣٧.

(٢) نفس المرجع: ص ٢٥٠.

الفصل الثالث

احتكاك العرب بغيرهم من الشعوب

١ ـ صلة العرب القدامى بالمصريين:

إن موقع شبه جزيرة العرب، يجعلها صلة وصل بين ما عُرِف في القديم بالممالك البابلية، وبين مصر. إن طرق التجارة التي كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، هي التي جعلت شبه الجزيرة العربية ممراً مهماً بين الغرب والشرق الأقصى، ونعني بذلك بين بلاد الروم وبيزنطة والحبشة ومصر، وبين بلاد الهند. بالإضافة إلى كون البلاد العربية كانت ممراً تجارياً مهماً، فإنها كانت على تماس مباشر مع الصحراء المصرية لا يفصل بينها إلاّ البحر الأحمر. وهناك طريق برية ساحلية تربط المنطقة السورية بمصر[١].

ويتحدث بعض المؤرخين عن تأثير المصريين على بلاد العرب من حيث الفن والدين والثقافة والفكر. فقد اهتم المصريون بشبه جزيرة العرب لما فيها من خيرات ولكونها ممراً تجارياً. ويبدو أن البدو في صحراء مصر وفدوا إلى بلاد العرب وباعوا النحاس والفيروز[٣]، وأيضاً انطلقوا منها نحو الهند. أضف

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩، ط ٢، ص ٢٩.

(٢) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب، دار غندور، ط ٥، بيروت ١٩٧٤، ص ٢٠.

(٤) نفس المرجع، ص ٦٠.

إلى ذلك أن المصريين استخرجوا البخور من شجر «اللبان» الذي كان ينمو في جنوبي بلاد العرب.

٢ ـ صلة العرب القدامى بالعبرانيين:

العبرانيون من الشعوب السامية، وهم من ضمن الموجة البشرية الثانية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية مندفعة شمالاً ونحو الساحل، حيث استقروا في فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق. م. والصلة بين العرب والعبرانيين قديمة، إن من حيث الموطن الجغرافي، أو من حيث النسب[1].

ويبدو أن الشبه بين العرب القدامى والعبرانيين كان قائماً في طرق معيشتهم، حيث كانوا بدواً رحلاً أصحاب معز يتنقلون في طلب الكلأ والماء. ومع انتقال العبرانيين في مرحلة تاريخية معينة إلى مصر، إلاّ أنهم عادوا وخرجوا منها وتاهوا في الصحراء أربعين عاماً، قبل أن يصلوا إلى أرض الميعاد بعد أن عبروا الأردن. ويقال إنه على عهد سليمان الحكيم، قدمت إليه ملكة سبأ وهي عربية جنوبية، حاملة الهدايا والأطايب. وبعد زوال مملكة سليمان وانقسامها، فرّ الكثير من اليهود العبرانيين إلى بلاد العرب وأقاموا فيها، وأشهر الأماكن التي نزلوها هي مدينة يثرب (المدينة) والتي بقوا فيها حتى ظهور الإسلام وبعده، وكذلك تيما ومكة والحجاز، وفي جنوب اليمن وممالكه المتعددة. وكان من جراء هذا الاختلاط أن أثّر العبرانيون وتأثروا مع الشعوب التي جاوروها وساكنوها. وظهر ذلك واضحاً في الدين والعادات والتقاليد.

٣ ـ صلة العرب القدامى بالسومريين والبابليين:

إن ممالك السومريين والبابليين كانت تقع على تخوم شبه الجزيرة العربية، خصوصاً في الشمال على أرض الرافدين وبلاد الشام. ويرجح فيليب

---

(١) يراجع هنا كتاب: الأب جرجس داود داود، أديان العرب قبل الإسلام، مجد، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨، ص ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧. لقد عقد الأب داود فصلاً مهماً في دراسته هذه (الفصل الثاني) بيّن فيه استناداً إلى الكتب المقدسة صلة العرب القدامى بالعبرانيين.

حتي أن يكون السومريون قد تعرّفوا على النحاس من مناجمه في عمان، أي بلاد العرب الجنوبية[1].

ومن العادات المعروفة عند السومريين هو أن يقوم الملك بالخدمة الكهنوتية، وهذا ما عُرِف عن ملوك العرب في الجنوب، ملوك حمير وملوك سبأ. ولا شك أيضاً في أن سبي اليهود على يد نبوخذ نصر في القرن السادس ق. م، وسكنهم في بابل أكسبهم الكثير من العادات والتقاليد والتي عادوا ونقلوها إلى داخل بلاد العرب عندما استوطنوها.

٤ ـ صلة العرب القدامى بالأشوريين:

قامت المملكة الأشورية في شمالي بلاد العرب، لذلك لم تنج بلاد العرب الشمالية من غزواتهم، إمّا حباً بالسيطرة والتوسع، وإمّا درءاً لخطر البدو وهجماتهم المتكررة.

ويعتبر فيليب حتي أن اتصال الأشوريين بالعرب لم يقتصر على الشمال فقط بل أيضاً وصلوا إلى عرب الجنوب وفرضوا عليهم الجزية من الذهب والخيل والإبل. ويبدو أن الملك الأشوري سنحريب قد احتل قلعة «أدومو» في بلاد العرب وهي التي سُميت في المصادر العربية «دومة الجندل»، وحمل آلهتها إلى بلاده وأسر ملكتها «تبؤه» على أمل أن يصلحها ويعيدها ملكة موالية لمملكة أشور.

ويبدو من هذا الحدث، أن العرب عرفوا آلهة الأشوريين، كما أن الأشوريين عرفوا آلهة العرب، مما يحمل على الاعتقاد أن التأثير الديني كان متبادلاً.

٥ ـ صلة العرب القدامى بالكلدانيين:

كما مر معنا فإن الكلدانيين ورثوا مملكة أشور، وفيها بعض الأراضي

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٦٤.

العربية الواقعة في الشمال، خصوصاً أقطار الشام وشمالي شبه الجزيرة العربية. وكان أحد ملوك الكلدان قد أغار على بلاد العرب عام ٥٥٢ ق. م وقتل أمير «تيماء» وفتك برعيته، وبنى قصراً له فيها. وتيماء هذه هي التي سمّاها ياقوت في معجمه بـ «تيماء اليهودي» لأن القائم عليها كان يهودياً.

ويبدو أن تيماء هذه كان لها أثراً كبيراً في علاقات العرب بالممالك المجاورة لهم. وهي تقع في شمالي الحجاز على طريق تجاري هام يصل خليج العقبة والبتراء غرباً بالخليج العربي شرقاً. وهي محط القوافل الآتية من الشام والشمال إلى اليمن في الجنوب[١] كما أن الملك الكلداني بختنصر قد حمل على بلاد العرب عام ٥٩٩ ق. م ونهب ماشيتها وسرق آلهتها[٢].

وورد في إحدى الكتابات الإرمية التي عُثِرَ عليها في خربة «تيماء» في القرن الخامس ق. م، أن أحد الكهنة استورد صنماً إلى تيماء وبنى له معبداً. كما عُثِرَ على رسم لصنم اسمه «هجم» مُثِّل في زي أشوري. وهذا يعني أن عرب تيماء تأثروا بعبادات الأشوريين والكلدانيين بالإضافة إلى تأثرهم بأزيائهم في اللباس.

٦ ـ العرب القدامى والفرس:

يبدو أن صلات العرب القدامى بالفرس كانت وثيقة، وكثيراً ما دخل العرب أمصاراً واستوطنوها وهي خاضعة لنفوذ الفرس خصوصاً في بلاد ما بين الرافدين وشمالي بادية الشام وجنوبي العراق. وليس أدل على ذلك سوى ما ذكرناه من علاقة إمارة المناذرة في الحيرة بملوك فارس. ويبدو أن العرب كانوا طرفاً في الحرب الدائرة بين الفرس والروم. فالمناذرة والوا الفرس والغساسنة والوا الروم. والحقيقة أن هناك تأثيراً متبادلاً بين الفرس والعرب من حيث

(١) الأب جرجس داود داود: أديان العرب قبل الإسلام، ص ٤٦ م. م.
(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٦٠٩.
(٣) نفس المرجع، ص ٦١٣.

العادات والتقاليد والعبادات والمعتقدات. وكثيراً ما كان الفرس يحاولون فرض معتقداتهم على عرب الحيرة (المناذرة) وخصوصاً المزدكية، فدخل العرب في ديانتهم وتزندقوا معهم.

٧ ـ العرب القدامى والأحباش:

إن المتاخمة والتجاور الجغرافيين لعبا دوراً بارزاً في علاقة العرب بالأحباش. فبلاد الحبشة لا يفصلها عن بلاد العرب سوى البحر الأحمر، والمصالح التجارية التي كانت قائمة آنذاك خير دليل على هذه العلاقة. هذه العلاقة في غالبيتها كانت علاقات ود ومصالح تجارية، إلاّ أن الأمور اختلفت مع اضطهاد مسيحيي نجران من قبل أحد ملوك الجنوب وهو يهودي «ذي نواس» والذي دعاهم إلى ترك المسيحية والالتحاق باليهودية. فقد طلبت بيزنطة من ملك الحبشة أن يتدخل لإنقاذ المسيحيين، حيث دخلوا اليمن بسبعين ألف رجل واحتلوها لمدة طويلة من الزمن.

مع دخول الأحباش تعاظم شأن المسيحية وأنشئت الكثير من الأديرة[١] حتى غدت النصرانية الديانة الرسمية للعربية الجنوبية واليمن. أضف إلى ذلك أنّ هناك إشارات كثيرة تشير إلى نصارى حمْير وسبأ وأن أحدهم أصبح ملكاً وهو «السمفيع أشوع». لكن الأحباش عادوا وعينوا «أبرهة» مكانه وهو الذي بنى الكنيسة «القُلَيّْس» في صنعاء وحاول أن يجعل منها كعبة العرب.

والحقيقة أن الأحباش سعوا إلى نشر المسيحية، وبنوا الأديرة والكنائس ونشروا الوعاظ والأساقفة وإليهم يعود الفضل في تنصر الحميريين والنبط.

٨ ـ العرب القدامى والرومان:

بعد استيلاء الرومان على مخلّفات مملكة الإسكندر، وخصوصاً على

---

(١) أنشئت كنيسة في ظفار وترأسها الأسقف «ثيوفيلس» ٣٥٤ م. وهناك كنائس أخرى في نجران وغيرها.

اليونان وآسيا الصغرى وبلاد الشام وشمالي أفريقيا، أصبحوا على تماس مباشر مع البلاد العربية. ثم دخلوا إلى عمق البلاد العربية مع حملة الأمبراطور «بومبيوس» عام ٦٤ ق. م، حيث استولوا على مملكة النبط أيام ملكهم الحارث. ولا ننسَ اتصالهم بمملكة تدمر وسيطرتهم عليها وعلاقتهم بالغساسنة واعتبارهم عمّالاً لهم على البلاد العربية. لقد نصبوا ملوكاً وخلعوا آخرين، واستعملوا حكام العرب في حروبهم مع الفرس. ودخل الرومان إلى عمق شبه الجزيرة العربية حين جرّد الأمبراطور «أغسطس قيصر روما» حملة لغزوها في الداخل بمساعدة الأنباط، لإحكام السيطرة على طرق التجارة. ومع فشل هذه الحملة، لم يُهمل الرومان أمر بلاد العرب، فعادوا واحتلوا ميناء عدن بحراً نظراً لأهميته الاستراتيجية. كما أن قيصر بيزنطة عام ٣٥٦ م «قسطنطين الثاني» عمل على إرسال بعثة نصرانية تبشر بالدين المسيحي[١].

ومن الآثار التي تركها الرومان في بلاد الشام، يمكننا الاستدلال على عظم حضارتهم وخصوصاً قبل انتشار المسيحية بينهم. لقد بنوا القلاع والحصون والمعابد في جرش الأردن وقلعة بعلبك في لبنان، وبعد انتشار المسيحية بنوا دير البلمند في شمالي لبنان. والحقيقة أن هذه المنطقة كانت تعج بالقبائل العربية التي تعاطت الزراعة، وبعضهم كان يتولى حماية قوافل التجار.

٩ ـ العرب القدامى واليونان:

يبدو أن صلة اليونان بالشرق قديمة، ولكن فاعليتها وشموليتها بدأت عبر فتوحات الإسكندر المقدوني في أواخر القرن الرابع ق. م. ويروي الدكتور جواد علي عن مصادر أخذ عنها أن الإسكندر فكّر أن يجعل نفسه إلهاً ثالثاً للعرب، بعد أن عرف أنهم كانوا يعبدون إلهين: «أورانوس» و «ديونيسوس» بالإضافة إلى جميع الكواكب وخاصة الشمس.

---

(١) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٣، ج ٢.

(٢) نفس المرجع: ج ٢، ص ٣٨.

والحقيقة أن تأثير اليونان الثقافي في الشرق كان قوياً، فقد حملوا معهم ثقافتهم وتقاليدهم، ومن أعظم ما فعلوه تأسيسهم لمدينة الإسكندرية ولمكتبتها العظيمة، حيث كانت صلة وصل فاعلة ما بين الثقافة الشرقية والثقافة اليونانية. ولا يخفى الأثر الذي تركته المدارس الدينية والثقافية التي أنشئت على تخوم البلاد العربية وكانت تعج بالكتب والمؤلفات اليونانية. نذكر منها مدارس: حرّان، قنسّرين، نصّيبين، الرهّا وغيرها.

ويذكر الدكتور جواد علي على أن مسألة القضاء والقدر كانت مطروحة في الجاهلية ولم تنبع من الإسلام فقط. ومن الألفاظ التي استعملت في الجاهلية لفظة (منى) بمعنى القَدَر، ومنها الماني بمعنى القادر والمنيّه بمعنى الموت. فالموت مقدّر بوقت مخصوص وهي من الكلمات السامية المشتركة والواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة.

ويبدو أن كثيراً من الأسرى اليونان والذين وقعوا في أيدي الفرس نقلوا بعض الاعتقادات اليونانية وبعض النظرات الفلسفية.

أضف إلى ذلك أن لفظة قَدَر لها صلة أيضاً باسم الإله الكنعاني «منى» وهو إله القَدَر[1].

خلاصة الباب الأول

قصدنا من عرضنا للمعلومات الجغرافية والتاريخية في الفصول المتضمنة لهذا الباب تبيان ما يلي:

١ ـ تبيان أهمية الموقع الجغرافي، وأهمية البيئة والمناخ في تحديد المعتقدات.

(١) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ١٥٧.

٢ ـ إن عرضنا لتاريخ العرب القديم، قصدنا منه الغوص قدْر الإمكان في الزمان المتقدم لعلنا نجد ما ينبئنا عن تمهيدات لما هو بين أيدينا من معلومات قد تبدو لنا أنها نتائج لما هو متقدم عليها.

٣ ـ إن احتكاك العرب بغيرهم من الشعوب، ولا سيّما تلك التي فرضت سيطرتها عليهم أحياناً، هو أمر في غاية الأهمية. فهناك شعوب كثيرة نعرف عنها ما لا نعرفه عن العرب، وربما كانت حضارياً متقدمة عليهم، فمن الطبيعي والحال هذه أن تستتبعهم عسكرياً وثقافياً ودينياً واقتصادياً.

٤ ـ إن الدول والممالك التي أنشأها العرب هي التي تترك الآثار، لأنها تمثل مرحلة متقدمة من التنظيم السياسي والاجتماعي. فمن خلال ما تتركه الدول من قصور وحصون وقلاع ومعابد تستروح منه الكثير لمعرفة الحالة التي كانت عليها إن من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية.

٥ ـ إن معظم ما ورد في فصول هذا الباب يعتبر الإطار الذي من خلاله سنتبين أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام.

الباب الثاني
أديان الوحي
عند العرب قبل الإسلام

الفصل الأول

الحنيفية

١ ـ تعريف الحنيفية:

حَنَفَ عن الشيء وتحنّفَ: مال.

والحنيف: المسلم الذي يتحنّف عن الأديان أي يميل إلى الحق، وقيل: هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم... وقيل هو من أسلم في أمر الله فلم يَلْتوِ في شيء.

أبو زيد: الحنيف هو المستقيم.

وقال أبو عبيدة في قوله عزَّ وجلّ: ﴿**قل بل ملَّة إبراهيم حنيفاً**﴾ قال: من كان على دين إبراهيم، فهو حنيف عند العرب. وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سمّوا المسلم حنيفاً.

ومعنى الحنيفية في اللغة المَيْلُ، والمعنى أن إبراهيم حَنَفَ إلى دين الله.

وفي الحديث: خَلَقْت عبادي حنفاء أي طاهري الأعضاء من المعاصي...

وقوله تعالى: ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ وقيل: أراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق ألست بربكم، فلا يوجد أحد إلاّ وهو مقر بأنَّ له رباً وإن أشرك به، واختلفوا فيه...[١].

(١) راجع لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، مجلد ٩، ص ٥٧ ـ ٥٨.

نستنتج مما تقدم أن الحنيفيّة ليست ديناً بالمعنى الذي هو عليه الإسلام والمسيحية واليهودية. صحيح أنها تقول بوحدانية الله، إلاّ أنها ليست ديانة كتاب أو وحي موحى. هي اعتقاد بوجود إله واحد أحد، دون أن يكون هناك وصايا أو تعاليم أو طقوس، ما عدا الحج إلى الكعبة.

هذه الحركة الحنيفية ظهرت عند العرب قبل الإسلام، وخصوصاً عند أولئك الذين استنكفوا عن عبادة الأوثان، ولم يعتنقوا المسيحية أو اليهودية، وسمّي أتباعها بالأحناف أو الحنفاء، وكلها جمع لحنيف (صفة إبراهيم عليه السلام) الواردة في القرآن الكريم في الآيات التالية:

- **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**[1].

- **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾**[2].

وكلمة مسلمين هنا تعني الموقف التوحيدي المجسّد للإيمان المتعالي، ولا تعني الإسلام كما عُرِف فيما بعد بعد نزول الوحي وتبلوره عقيدة عند الفقهاء والمتكلمين[3].

- **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾**[4].

- **﴿.. إنّي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾**[5].

---

(١) سورة البقرة، ٢، آية ١٣٥.

(٢) سورة آل عمران، ٣، آية ٦٧.

(٣) راجع كتاب محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، دار الساقي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٥٤.

(٤) سورة النساء، آية ١٢٥.

(٥) سورة الأنعام ٦، آية ٧٧.

يظهر إذن من كل ما ورد في هذه الآيات أن الحنيفية كانت اعتقاداً سائداً يجسّد موقفاً توحيدياً يؤسس لميثاق مقدّس خارج الزمان والمكان، موجود في وعي الناس يجذبهم نحو المطلق ونحو اللامتناهي خارج إطار أي تشكل لغوي وثقافي وتراثي. إن الإسلام بما هو دين حنيف تجسيد لشعائر وطقوس، لحظته الأولى محدّدة زمانياً ومكانياً، مسبوقة بأديان الوحي المتقدمة زمانياً عليها، والكل مؤسس على فضاء قُدْسي لا متناهي يتمثل بالحنيفية، وبحركة إبراهيم عليه السلام حتى قبل بالتضحية بابنه من أجل طاعة الله.

٢ ـ الحنيفية عند العرب قبل الإسلام:

ويبدو أن الحنيفية، بما هي استعداد لعبادة إله واحد لا متناهي وغير مجسّد، لم تتبلور كاتجاه معادي للصنمية والوثنية إلاّ في نهاية العصر الجاهلي. يقول ابن إسحٰق: «اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيّاً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا أجل، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله بن جحش... وعثمان بن الحويرث.. وزيد بن عمرو بن نفيل.. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية.. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم.. وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر الروم فتنصر.. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان وقال أعبد رب إبراهيم»[١].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق السقّا، دار الكنوز الأدبية، ج ١، ص ٣٧٣.

ويعتبر الدكتور شوقي ضيف، أن كلمة حنيف تعني «المائل عن دين آبائه، كما يدل اشتقاقها اللغوي»[1]. والحقيقة أن معظم الذين اعتنقوا الحنيفية مالوا عن عبادة الأوثان والأصنام المحدودة زمانياً ومكانياً إلى دين إبراهيم عليه السلام، الذي كان يعبد رباً لامتناهياً في الزمان والمكان.

ومع أن الرواية التي سقناها سابقاً، تكاد تحصر الحنيفية في اثنين فقط، إلاّ أن كتب الأدب والتاريخ ترفدنا بأسماء متعددة في هذا الإطار. فقد ذكر اسم قس بن ساعد، من بين الحنفاء، وأيضاً أبا ذر الغفاري، وصرمة ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة، وعامر بن انطرب العدواني، وخالد بن سنان العبسي، وأميّة بن أبي الصلت الثقفي وعمير بن جندب الجهني. ونذكر أيضاً من الحنفاء كل من حرّم على نفسه في الجاهلية، الخمر والسكر والأزلام، مثل عبد المطلب بن هاشم، وقيس بن عاصم التميمي، وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة[2].

ورد اسم الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في عداد المتحنفين، وكذلك كعب بن لؤي بن غالب أحد أجداد الرسول، الذي دعا قريشاً إلى التفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الأرحام وحفظ العهد، ويذكرهم بالموت وأهواله، ويبشرهم بمبعث رسول الله[3].

٣ ـ الحنيفية في الكتب المقدسة:

يبدو أنّ معظم ما نعرفه عن الحنيفية ومضمون تعاليمها مأخوذ من الكتب المقدّسة، القرآن، الإنجيل، التوراة.

---

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العرب، العصر الجاهلي، ص ٩٦.

(٢) نفس المرجع، ص ٩٧.

(٣) الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٢٤، ج ٢، ص ٢٨٢ وهذا مقتبس من كتاب، تاريخ العرب قبل الإسلام، لعبد العزيز سالم، ص ٤٣٨.

فمن خلال الكتاب المقدّس، نتبيّن أن إبراهيم قد عاش فترة طويلة من الزمان في بلاد ما بين النهرين، ثم اتجه جنوباً نحو أرض الكنعانيين، ثم إلى دمشق ومن ثم ينتقل إلى مصر.

وكان إبراهيم قد تزوج من سارة، وهي أخته بنت أبيه، وكانت عاقراً لا تنجب.

ثم بعد مصر عاد إلى فلسطين أرض كنعان، وكانت معه جارية اسمها هاجر تزوجها بعد أن أذنت له سارة، وذلك لكي تكون لديه ذرية. وبعد أن أنجب إسماعيل من هاجر عاد وأنجب من سارة إبناً أسماه إسحق.

وتقول الروايات أن إبراهيم قد أبعد هاجر وابنها حيث تاها في الأرض، وأنه بعد أن ماتت سارة، عاد وتزوج من «قطورة» وأنجب منها عدداً من الأولاد[١].

أما في القرآن فقد ذُكِر اسم إبراهيم تسعاً وستين مرة، وأطلق عليه صفة «خليل الله» ومؤسس الإسلام، وباني الكعبة.

يبدو مما تقدم أنّ هناك تطابقاً يكاد يكون تاماً حول اعتبار إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء جميعاً، وهو أول مبشر بالألوهية ووحدانيتها. ويبدو أن ابنه إسماعيل من هاجر، هو الذي ينتسب إليه العرب، خصوصاً أن ما ينقله رواة الحديث عن الرسول قوله لقوم من أسلم يتناضلون بالسوق «**أرموا، يا بني إسماعيل، فإنّ أباكم كان رامياً**».

وينقل الأب جرجس داود عن المسعودي قوله: «أن إبراهيم أسكن ولده إسماعيل مكة مع أمّه هاجر وأمرها أن تتخذ عريشاً على ربوة حمراء موضع البيت، يكون لها ولابنها مسكناً»[٢].

---

(١) الأب جرجس داود داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٠١.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٠٦.

وتأكيداً لانتساب العرب إلى إسماعيل وأمه هاجر يروي المسعودي أيضاً حديثاً عن الرسول، قال: «**رحم الله أمّنا هاجر، لولا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم من أن يجري، بما حوّطت حوله من الأحجار لجرى الماء على وجه الأرض**». كما يروي المسعودي قصة تفرُّق العماليق بعد قحط اليمن، وكيف أن إسماعيل تزوج منهم وتكلم لغتهم العربية بخلاف لغة أبيه. وكان إبراهيم يزور ابنه، وقيل أن زوجة ابنه كانت تضع له حجراً تحت قدمه، عُرِفَ هذا الحجر فيما بعد بمقام إبراهيم.

ويذكر القرآن الكريم كيف اشترك إسماعيل مع أبيه في بناء البيت ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾[1]، وهذا البيت (الكعبة) هو أول بيت إنساني يُتعبد فيه للّه تعالى.

وتوالت ذرية إسماعيل، وعظَّم أبناؤه البيت الذي بناه جدّهم ووالدهم، وأصبح محجّة للناس. وقيل في معنى الحجر الأسود، أنّ البيت كاد ينتهي بناؤه، وكان ينقصه حجر واحد، فذهب الولد ليأتي بواحد، فإذا الأب قد ركّب حجراً مكانه أسود اللون، أتاه به جبريل.

هذه الروايات المنقولة عن الطبري والمسعودي يخالفها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، ويعتبر أن باني الكعبة هو «شيت» ابن آدم الذي قدم مكة، وأن الطوفان قد هدمها، فأعاد إبراهيم وابنه إسماعيل بناءها[2].

٣ ـ طقوس الحنيفية:

١ ـ **الحج**: يروي البعض، (الأزرقي)[3] أنه بعد الفراغ من بناء البيت،

---

(١) سورة البقرة، آية ١٢٧.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨، ج ٣، ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، مدريد إسبانيا، د. ت. ج ١، ص ٦٦. مقتبسة عن كتاب الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢١٣.

طلب جبريل من إبراهيم وابنه إسماعيل أن يطوفا بالبيت سبعاً، ثم بعد الطواف أن يصليا خلف المقام ركعتين، ثم أرى جبريل إبراهيم المناسك كلها «الصفا ـ المَروَة ومنى ومزدلفة وعَرَفة».

والعرب كان تطوف بالبيت، وكان للتطواف سنَّة يجري عليها، لها عاداتها وتقاليدها حيث أبطلها الإسلام فيما بعد.

٢ ـ **الرجم**: أي رمي الحجرة، حيث قيل فيها أن إبراهيم لمّا أتى المناسك، عرض له الشيطان عند حجرة العقبة فرماه بحصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الحجرة الثانية. ثم الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض»[١].

٣ ـ **كسوة الكعبة**: درجت العرب على كسوة الكعبة في الجاهلية، ولمّا جاء الإسلام أقرّ بذلك. وكانت الأرض المحيطة بالكعبة، تعتبر أرضاً مقدّسة لا يجوز القتال فيها، كما كانت أشهر الحج إليها أشهراً حراماً. وكان الناس يأتون الكعبة من مختلف الأقطار وهم على أديان ومعتقدات مختلفة. وكانوا يجلبون معهم الأضاحي، قرباناً أو شكراً، وهم يتمثلون في ذلك واقعة إبراهيم الذي أُمِر بالتضحية بابنه، فافتداه الله بكبش غنم.

* * *

ـ وهكذا نرى أن الحنيفيّة[٢] انتشرت في بلاد العرب والحجاز خصوصاً بعد هجرة إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام إليها من بلاد مصر وفلسطين، وبعد

---

(١) الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢١٥.

(٢) «في ملوك حمْير واحد اسمه أبرهة ذو المنار قيل أنّ وجهه كان جميلاً، فرأته امرأة من الجن فعشقته فهجمت عليه ليلاً في فراشه. قالت له: أيها الملك إني عشقتك وليس لي منك بد وأنا حنيفية على دين إبراهيم وأنا لا أرضى بالزنا ولا أدين به». كتاب التيجان في ملوك حمْير، ص ١٣٧. المقصود من إيراد هذه الرواية أن الحنيفية كانت معروفة حتى في جنوب اليمن وبين ملوك حمْير.

زواجه من قبيلة الجرهمية وحلول هؤلاء في وادٍ قرب مكة، حيث هناك ماء زمزم. ويتكاثر ولد إسماعيل وينتشرون في شبه الجزيرة العربية وينشرون معهم اعتقادهم الحنيف. وبعد موت إسماعيل بقي الحج إلى مكة والطواف بالبيت، ومع الأيام اندثر هذا الاعتقاد وأخذت تخف وطأته شيئاً فشيئاً، وعادت عبادة الأصنام لتزدهر. والحقيقة أن أولئك الذي كانوا يظعنون من مكة كانوا يحملون معهم حجارة من الحرم العظيم، وأنّى كانوا ينزلون ينصبونه، ويطوفون حوله كطوافهم حول الكعبة. لأجل ذلك كانوا يستنسبون من الأحجار ما يعجبهم ويجعلونها آلهتهم فيعبدونها..

الفصل الثاني

اليهودية

اليهودية هي أولى الديانات الكتابيّة الموحى بها. أي أن اليهود أهل كتاب (التوراة والتلمود) كالمسلمين (القرآن) والمسيحيين (الأناجيل). فالتوراة هو الأساس وجاء التلمود ليكمل أحكام التوراة ويشرحها. فقد قام أحبار اليهود بتسجيل هذه الشروحات، وقوامها مجموعة القواعد والأحكام والوصايا والشرائع والشروح والتعاليم والروايات التي تواترت شفاهة.

وقد عُرِف اليهود باسم آخر هو العبرانيون الذين كانوا من عداد الموجة الساميّة الثانية[1] التي خرجت من شبه الجزيرة العربية إلى أطرافها. وربما سمّوا عبرانيين، من عبور جدهم إبراهيم نهر الفرات، أو من عبورهم مع موسى للبحر الأحمر. والأصح أنهم سمّوا كذلك نسبة إلى عابر أحد أجداد إبراهيم.

وقد عُرفوا أيضاً بالإسرائيليين، أي المجاهدين مع الله. وهذا لقب أطلق على يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، أي حفيد زوجته سارة. وقيل لهم أيضاً هود، ومنها كلمة يهود، وأغلب الظن أنها مشتقة من يهوذا وهو رابع أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، وسبط من أسباط بني إسرائيل.

ويبدو أن اليهود قدماء في الجزيرة العربية منذ عهد عاد وثمود. فعاد قوم

---

(١) راجع ما قلناه في الباب الأول عن تاريخ العرب قبل الإسلام.

هود عليه السلام[1]، يعتبرهم الأخباريون أقدم العرب البائدة. ويخبر القرآن عن عاد ونبيهم هود: **﴿كذّبت عاد المرسلين. إذ قال أخوهم هود ألا تتقون. إني لكم رسول أمين﴾**[1]. وأخبر القرآن الكريم كيف أنّ عاداً عصت نبيها هود واستكبرت في الأرض، فعاقبهم الله تعالى أشد عقاب، فأرسل عليهم ريحاً صرصراً، وصواعق دمرت مساكنهم وقضت عليهم. وأغلب الظن أن مساكن عاد كان تقوم في اليمن، فتكون هذه الموطن الأول لليهود.

١ ـ تواجد اليهود في شبه جزيرة العرب:

يعتبر المؤرخ اليهودي (بوسفوس فلافيوس) أن اليهود تواجدوا بين العرب وأن بعض ملوك مملكة حدباب كانوا قد تهودوا[2]. وأقدم ما نعرفه عن انتشار اليهودية بين العرب يعود إلى أيام سليمان، والبعض يرجعه إلى عهد سقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر[3]. ومن الجائز أن يكون نزوحهم إلى الجنوب قد تزايد مباشرة بعد تخريب الهيكل الثاني بقليل. ويعتبر بعضهم أن أقدم المستعمرات اليهودية في الحجاز يرجع إلى زمن سقوط القدس بيد قيطس أو هدريان[4].

ويبدو أن اليهودية انتشرت بين ملوك حمْير، وبين بني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة، وغسان. وتهوّد أيضاً قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير. وتهوّد قوم من غسان وقوم من جذام ومن بني الحارث بن كعب[5].

وكانت فلسطين مهد اليهود منذ أقدم العهود هي صلة الوصل بين بلاد

---

(١) سورة الشعراء ٢٦ آية ١٢٣.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ٥١٤.
(٣) محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٢٨.
(٤) نفس المرجع، نفس الصفحة.
(٥) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ٥٣٤.

العرب وسورية من جهة ومصر من جهة ثانية، وكان تجار اليهود يرحلون إلى سبأ في عهد سليمان وبعده.

وفي رواية الأصفهاني في كتابه الأغاني ما ينبيء عن نزول جيش موسى النبي المدينة واتخاذهم بها الآطام والأموال والمزارع ومكوثهم بها زماناً طويلاً وذلك بعد قهر هذا الجيش للعماليق سكان تلك الديار. وبقي اليهود في المدينة حتى أيام الروم حيث انضم إليهم آخرون. كما أن الأوس والخزرج نزلوا المدينة أيام سيل العرم وجاوروا اليهود، وفتكوا بقسم منهم. بيد أن قسماً كبيراً منهم بقي فيها إلى حين دخول الإسلام.

وامتدت الديانة اليهودية إلى ما وراء يثرب المدينة، حتى تهوّد الكثير من عرب الحجاز واليمن. أما يهود الحجاز فكانوا قبائل وعشائر منهم بنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو محمر، وبنو قينقاع، وبنو زيد، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص. ويرى الدكتور جواد علي أن اليهود في الحجاز استقروا في المدن وكانوا حضراً يمارسون مهن أهل المَدَر[1]. وكانت القبائل من اليهود أيضاً تتقاتل فيما بينها، خصوصاً بين بني قريظ ونضير وبين بني قينقاع الذين كانوا عرباً تهوّدوا.

إذن يبدو أن يهود الجزيرة العربية ينقسمون إلى قسمين: يهود من أصل عبراني يعودون في نسبهم إلى يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم من زوجته سارة، أو نسبة إلى هود في قوم عاد. وهناك يهود عرب التحقوا باليهودية بعد انتشارها في بلادهم. ويدعم هذا الرأي ما يقوله جواد علي من أنه «قد تكون بعض القبائل يهودية حقاً هاجرت من فلسطين في أزمان مختلفة، ولكن بعضاً آخر منهم لم يكن في أصل يهودي، إنما كانت قبائل عربية دخلت في دين اليهود»[2].

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ٥٢٢.

(٢) نفس المرجع، ج ٦، ص ٥٢٤.

ومن سكنى اليهود «خيبر» التي افتتحها الرسول عام سبع للهجرة. وتيماء التي كان يسكنها اليهود، فقد صالحت الرسول على الجزية، ثم أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب عن شبه الجزيرة العربية. وتيماء مدينة كانت من أهم مواطن العبرانيين وفيها احتكوا بالعرب وهوّدوا بعضهم.

ومن سكنى اليهود أيضاً «فدك» التي تقع في الحجاز على سفر يومين من المدينة.

كما أقام اليهود في وادي القرى وفي قعنا وأيله وفي منطقة أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر.

وسكن اليهود أيضاً في الطائف، وفي المدينة ومكة وعدن وشواطىء البحر الأحمر وموانىء العربية الجنوبية[١].

اليهود في اليمن:

انتشرت اليهودية في بلاد اليمن بوجه خاص، وظهر التهوّد فيها ظهوراً واضحاً ويعيد البعض انتشارها إلى الحميريين، وخصوصاً إلى التبابعة، أي أتباع «تبع الأخير أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري اليمني»[٢]، الذي اعتنق اليهودية بتأثير من حبرين من أحبار اليهود. وهذا يدل على أن اليهودية كانت موجودة آنذاك إنما لم تكن منتشرة بكثرة.

وكان التجّار والمبشرون اليهود، وبتأثير من ملكة سبأ التي زارت أورشليم وقابلت سليمان، قد ساهموا في نشر اليهودية. إضافة إلى أن يهوداً كثراً كانوا قد هربوا من الأشوريين والكلدانيين والرومان واتجهوا صوب بلاد العرب، الحجاز واليمن.

ومما ساعد على انتشار اليهودية أكثر في اليمن، هي كون هذه المنطقة من

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٥٣٠.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ١٢٠.

بلاد العرب أكثر تحضراً من غيرها، نظراً لطبيعة مناخها ووقوعها على الساحل، مما سمح لها بالاحتكاك أكثر بالمناطق الأخرى وبشعوب متعددة، فنشأت فيها الحواضر، وتأسست فيها ممالك، وكانت ممراً مهماً للتجارة، مما سمح لليهود وهم أهل صناعة وحرفة وتجارة أن يجدوا مأربهم في هذه البلدان.

وقد تكاثر اليهود في جنوب اليمن، ولكنهم بقوا على اتصال بأرض الميعاد (فلسطين) حيث يقوم هناك الهيكل الأول (الذي يحوي تابوت العهد)[1]. ويذكر الدكتور جواد علي، أن قبراً اكتشف في حيفا منقوش عليه «مناحيم قبل حمير» مما يشير إلى أنه أحد كبار الأحبار الآتين من اليمن إلى الأرض الأم، حيث مات هناك ودفن.

ويشير بعض المؤرخين العرب[1]، إلى أن فترة احتلال الأحباش لليمن هي التي دفعت يهود اليمن وملوك حمير نحو الشمال. لكن بعد أن استرد الحميريون بلاد اليمن عادوا ونشروا اليهودية خاصة على يد «أبو كرب»، ومن بعده على يد خليفته الملك «ذو النواس»، الذي قام لمهاجمة المسيحية خشية انتشارها وعودة نفوذ الأحباش، ودعا لاعتناق اليهودية لأجل ذلك فقط.

بقي اليهود على انتشارهم في اليمن حتى بعد دخول الأحباش النصارى إليها، وحتى بعد ذلك أيام الإسلام، إلى أن هاجروا إلى فلسطين، وإلى مصر أيضاً حيث أقاموا مستوطنة يهودية في جزيرة الغيلة قرب أسوان[3].

اليهود والمتهوّدون العرب:

هل يختلف اليهود العبرانيون عن اليهود العرب؟

في الحقيقة أن الموجة الساميّة الثانية التي خرجت من الجزيرة العربية، كان فيها العبرانيون الذين انتشروا شمالاً ومن ثم شرقاً حيث فلسطين ومصر.

---

(١) الآب جرجس داود داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٣٠.

(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٢٠.

(٣) جورج قرم، تعدد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٣.

وإذا كانت اليهودية قد تأسست عند العبرانيين أولاً فإنّها ما لبثت أن عادت بعد تيه شعبها في صحراء سيناء، وفي أرجاء العالم أنذاك، وانتشرت في أرجاء الجزيرة العربية، فدخل فيها من كان على دين الوثنية. صحيح أن اليهود العبريين حملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم، وصحيح أيضاً أن المتهودين الجدد من العرب كانت لهم تقاليدهم وعاداتهم، إلاّ أن الأمر اختلط كثيراً، حتى صَعُبَ علينا التمييز بين العرب المتهودين واليهود المهاجرين. وإن كان جواد علي ينقل عن المستشرق (ونكلر) رأياً مفاده أن اليهود في الجزيرة العربية هم عرب متهودون، نظراً لأن عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم كانت يجب أن تكون خلافاً ما كانت عليه في حال كانوا يهوداً عبرانيين[1].

أما المستشرق (مرغلوس) فيرى عكس ذلك، أي أن يهود الحجاز كانوا يتميزون عن الأعراب في عاداتهم وتقاليدهم، حيث كانوا يمتهنون بعض المهن التي يأنف العربي أن يمتهنها، ويشتغلون بالزراعة، ولا يرغبون في القتال والغزو والحرب.

والحقيقة أن بعض العرب قد تهوّد، ودليلنا على ذلك أسماء القبائل والبطون والأشخاص، والتي يعود أصلها جميعاً إلى أصل عربي، ما عدا اسماً واحداً كانت تظهر عليه الملامح العبرانية وهو اسم (زعوراء).

والملاحظ أيضاً أن اليهود عرباً كانوا أم عبرانيين، لم ينشئوا ممالك، وإن كان قد نسب إلى أحد ملوك حميْر «ذو نواس» بأنه تهوّد، إلاّ أن غالبيتهم كانت قبائل مستقلة تحت حماية سادات قبائل أخرى، حيث يخضعون لنظامهم السياسي والاجتماعي ويدفعون ما عليهم من أتاوات.

وقد ذُكِرتْ اليهودية في أشعار العرب، ووردت بعض الألفاظ التي تدل على أماكن عباداتهم: المحراب، والمحاريب، كما هو وارد في شعر قيس بن الخطيم:

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٥٣٣.
(٢) نفس المرجع، ج ٦، ص ٥٣٢.

نَمتْهـــا اليهـــودُ إلـــى قبَّـــه دُوَيْـــن السمـــاءِ بمحـــرابهـــا[1]

ورجل الدين عند اليهود هو «الحبر» جمع «الأحبار» والربانيون، وقد ورد في لسان العرب:

كمـــا خـــطّ عبـــرانيـــة بيمينـــه بتيمـاء حبرُ ثـم عـرّض أسطـرا[2]

ووردت أسماء كتب اليهودية المقدّسة في القرآن الكريم، كالزبور والتوراة والأسفار والكتاب.

وقد تداول شعراء العرب أسماء هذه الكتب في أشعارهم. يقول امرؤ القيس:

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

وكذلك وردت هذه الكتب في أشعار المرقش الأكبر وأميّة بن أبي الصلت.

ومن المحتمل كما يقول الأب داود أن يكون اليهود قد نقلوا ديانتهم إلى اللغة العربية كما يبيِّن ذلك الشاعر «الأسود بن يعفر»:

سطـور يهـوديـن فـي مهـرقيهمـا مجيدين من تيماء أو أهل مدْين[3]

وهذا دليل على أن الكتابة كانت بالعربية، كي يستطيع قراءتها والحكم عليها شاعر عربي.

---

(١) مقتبسة عن كتاب: الاب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٣٣. وذكرها أيضاً الدكتور صادق مكي، ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ص ٣٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مجلد ٤، ص ١٥٨، مادة حبر.

(٣) ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف، مصر، ص ٨٢. مقتبسة عن كتاب الأب جرجس داود، ص ٢٣٥.

ثم يروى حديث عن الرسول جرى بينه وبين سويد بن الصامت، حيث خاطب رسول الله بالقول: لعلّ الذي معك مثل الذي معي! فقال: وما الذي معك؟ قال سويد: مجلة لقمان. فقال له الرسول: أعرضها علي. فعرضها عليه، فقال له: إن هذا لكلام حسن والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى، هو هدى ونور[1].

ويبدو أن اليهود قد نقلوا بعضاً من تعاليم كتبهم إلى اللغة العربية وتداولوها بين الناس في المنتديات وفي حملاتهم التبشيرية. .

ومن تقاليدهم الدينية التي عرفها عرب الجاهلية المتهودين، الحرمة التي خلعوها على يوم السبت، وإلى أن موسى أخذ العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم.

ومن أحكام دينهم، الرجم للزاني، والابتعاد عن النساء في المحيض، وخطر أكل بعض المأكولات، والاعتقاد بوجود إله واحد هو إله إسرائيل. . وغيرها.

شعراء العرب المتهودين:

هناك بعض اليهود العرب، نظموا الشعر بالعربية، وعلى طريقة الشعر العربي المعروف أنذاك. من أشهر شعرائهم السموأل بن عاديا، وله مطولات، وهو من تيماء التي مرّ ذكرها معنا كإحدى أشهر مواقع سكنى اليهود. وكان السموأل مشهوراً بوفائه، ومحافظته على الوديعة. ومن القريظيين أي بني قريظة، أوس بن دفن، وكعب بن سعد، وسارة، وأبو الديال، وشريح بن عمران، وكعب بن الأشرف، وأبو رافع اليهودي وغيرهم.

ولن نتعرض لجميع ما كتبه الشعراء اليهود بالعربية، ولكننا سنتوقف عند السموأل لشهرته الضاربة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، سيّما وأنّ ما وصلنا

(١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، ص ٦٢. مقتبسة عن الأب جرجس داود، ص ٢٣٥.

من شعره أغزر بكثير مما وصلنا من غيره من شعراء اليهودية.

يقول السموأل في عادات الكرم والضيافة ورعاية المعوزين واليتامى:

رأيت اليتامى لا يسدُّ نقورهم   قراناً لهم في كلِّ قصْب مشعَّب
فقلت لعبدينا: أريحا عليهم   سأجعل بيتي مثل آخر مُعْزب[1]

ويبدو من هذين البيتين أن السموأل كان يقتني عبدين، وأن فكرة العبودية والاستخدام كانت سائدة أنذاك حتى بين من أخذ بالديانات السماوية. ولكن مهما يكن من أمر فإن الكثير من العادات الجاهلية احتفظ بها ليس اليهود فقط، بل أيضاً المسلمون في ما بعد.

وشيمة الوفاء كانت إحدى شيَم السموأل والتي ربما كان قد اكتسبها من عادات العرب السائدة أنذاك وليس من كونه يهودياً، وهذا ما يؤكد أنه من العرب المتهودين:

فأحمي الجار في الجُلّى فيُمسي   عزيزاً لا يرام، إذا حميتُ
وفيت بأدرع الكندي، إنِّي   إذا ما خان أقوام وفيت[2]

لقد قتل ابن السموأل على مرأى منه من قبل الحرث بن ظالم ولم يسلم وديعة الكندي ولم يخفر ذمته.

ومن آراء السموأل في الموت والحياة ما يشير إلى أنه كان يؤمن بأن الإنسان خُلِق من العدم، ومن ثم سيموت ليعود ويبعث في حياة أخرى. وفي ذلك يقول:

ميت دهر قد كنت ثم حييت   وحياتي رهن بأن سأموت
وأتاني اليقين أني إذا مُـ   ـتُ وإن رمَّ أعظمي مبعوث[1]

---

(١) ديوان السموأل، دار صادر بيروت، د. ت. ص ٨٠.
(٢) نفس المرجع، ص ٨١.
(٣) ديوان السموأل، ص ٨١.

ويبدو أن مسألة الأقدار كانت مطروحة في أيامه، وهو يؤمن بالقضاء والقدر، ويؤمن بالرزق الحلال، وبالأنبياء داود وسليمان ويوسف، ويذكر أسباط بني إسرائيل (أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) وموسى وشقه للبحر، ومسألة إبليس وعصيانه للسجود لربه:

بـل لكـل مـن رزقـه مـا قضـى الله ... بــه وإن حــزّ أنفــه المستميــت

كيـف السـلامـة إن أردت سـلامـة ... والمـوت يطلبنـي ولسـت أفـوت

أصبحـت أفنـى عـاديـاً وبقيـت ... لـم يبـق غيـر حشـائشي وأمـوت[1]

وكان السموأل يدعو إلى خير العمل في هذه الحياة الفانية، لأنه يؤمن بالحساب في اليوم الآخر، وأن كل شيء فانٍ في هذه الدنيا بحيث لا تنفع القصور ولا القلاع بل الأعمال الحسنة.

وربما أهم ما ورد عنده من آراء في الحياة الدنيا والآخرة، هو إيمانه بالبعث والأنبياء المخلصين، ويوردون له بيتاً من الشعر يُقر فيه بمجيء المسيح:

وفـي آخـر الأزمـان جـاء مسيحنـا ... فأهدى بني الدنيا سلام التكامل[2]

هذا نموذج من شعر العرب المتهودين، فيه الكثير من عادات وتقاليد سائدة في الجاهلية، مُعبرة عن أن هذه الديانة (اليهودية) وإن عرفت انتشاراً لا بأس به بين العرب، إلاّ أنّ تأثيرها لم يتعد التوجه نحو الإيمان بإله واحد. لم تستطع هذه الديانة أن تغيّر في البنى الذهنية العربية، ولا في عاداتهم وتقاليدهم، ولا حتى في وجوه معاشهم. ولعلّ التمييز الذي أقامه البعض بين اليهود العبرانيين واليهود العرب صحيح في كثير من جوانبه، وأن اليهودية وإن اعتنقها البعض كديانة توحيدية، إلاّ أن الكثير مما تميَّز العبرانيون به لم يستطيعوا نقله إلى العرب المتهـودين،

---

(١) نفس المرجع: ص ٨٣.

(٢) نفس المرجع: ص ١٠٣.

الفصل الثالث

النصرانية

النصرانية هي ثاني الديانات الكتابية الموحى بها. وإن كان النصارى لا يعتبرون أنفسهم أهل كتاب من حيث أن الوحي مستمر في ألوهية المسيح، وأن الأناجيل التي هي من وضع الحواريين الذين سجلوا كلمات المسيح وصاغوها أناجيلاً، هي كتب مقدّسة، إلاّ أن القرآن الكريم يعتبرهم أهل كتاب. لن ندخل في مماحكة حول هذه المسألة وموقف الإسلام منها، إلا أننا ما نبغيه هنا هو التعريف بالنصرانية فقط وكيفية انتشارها بين العرب.

يقال «نصارى» نسبة إلى أتباع السيد يسوع ابن مريم الذي كان ناصرياً أي وُلِد في مدينة الناصرة، وفيها قضى معظم السنين الأول من حياته (٣٠ سنة) ويقال «مسيحيون» نسبة إلى يسوع، الذي دُعي بالمسيح لأنّه مفرز ومكرّس للخدمة والفداء. وقد ورد في الأناجيل (لوقا، ومتى، ويوحنا، والأعمال) تبريرات لهذه التسميات التي أوردناها.

المهم أن القرآن سمّى أتباع يسوع بالنصارى، وقد ورد ذكرهم في كثير من الآيات القرآنية (سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورتي التوبة والحج).

إن جوهر الديانة المسيحية هو الإيمان بالله وبابنه يسوع المسيح. وإذا كان الإسلام يرى في المسيح كلمة الله، فإن المسيحيين يعتبرونه ابن الله.

ولن نخوض في مماحكات اللاهوت المسيحي وكيفية انبنائه فيما بعد، وكيفية اختلاف المسيحيين حولِ طبيعة المسيح، وما إذا كان فيه طبيعتان أم طبيعة واحدة[1]. فإن كل ذلك ليس من صلب اهتمامنا هنا.

(١) بدأت الانشقاقات في المسيحية باكراً جداً وخصوصاً عقيب المجمع الخلقيدوني المنعقد =

١ ـ دخول النصرانية إلى شبه الجزيرة العربية:

يبدو أن أول احتكاك للعرب بالمسيحية كان مع المسيح مباشرة، خصوصاً في تلك المدن التي عاش فيها وتنقل بينها يسوع الناصري. فمن الناصرة إلى بيت لحم والقدس وأريحا وصور وصيدا، كل هذه المدن كانت تعرف بعض السكان العرب. وربما كان بعض العرب اليهود قد عرفوا المسيح وتلقوا منه التبشير وربما تنصروا أيضاً. لقد انتشرت النصرانية بين اليهود أولاً ومن ثمّ انتقلت إلى سائر الشعوب. فالقديس بولس واسمه في الأساس «شاوول» هو من أوائل اليهود المتنصرين والمدافعين عن تعاليم السيد المسيح. وهو الذي تولى فيما بعد نقل المسيحية إلى بلاد العرب، وإلى بلاد الغرب وخصوصاً اليونان عبر الكرسي الانطاكي.

ويبدو أن الغموض يحيط بزيارة القديس بولس إلى بلاد العرب، وما إذا كانت مهمته تبشيرية أم أنها كانت للخلوة والعزلة. ويذكر الأب داود[1] أن الكتاب المقدّس لم يحدد أين نزل بولس في بلاد العرب مدة ثلاث سنوات. هل كان قد اتصل بمملكة الأنباط في الشمال، أم أنه اتجه إلى عمق البلاد العربية. المهم أن بولس اتصل بأناس عرب أثناء انتقاله من دمشق إلى أورشليم، وكان

= في خلقيدونه في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. وعلى أثره اتهم نسطوريوس الذي كان أسقفاً في القسطنطنية بالهرطقة (٤٢٨ م). وهو أحدث بدعة قوامها أنّ في المسيح طبيعتين متمايزتين، وأن خصائصه في الإرادة والوجود والفعل هي خصائص إنسانية، فالمسيح إنسان بالولادة ثم اتحد به الكلمة فصار إلهاً. من أعلام النساطرة «برصوما» الذي انتقل إلى بلاد فارس وأعاد فتح مدرسة نصيبين أما اليعاقبة، وهم المعروفون بالكنيسة السريانية الأرثوذكسية، ففي مذهبهم أن الله صار جسداً وأن لاهوت المسيح وناسوته طبيعة واحدة، وهو في عنصريه أقنوم واحد. وكانت مدرسة قنسرين على ضفة الفرات، قاعدتهم الفكرية. أبرزهم كان يعقوب الرهاوي الذي كان إسقفاً على الرها، ثم انتقل إلى إنطاكيا. وقد انتشر مذهبهم في بلاد الشام وبني الغساسنة خصوصاً.

(١) الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٧٥.

ينشر بينهم النصرانية كما تلقاها من يسوع، ومن معلمه النصراني الدمشقي «حنانيا»[1].

والحقيقة أن المسيحية لم تنتشر في القرون الثلاثة الأولى انتشاراً مقبولاً بين العرب ولا حتى بين الشعوب الأخرى. فالمعروف أن الرومان حاربوها بداية، وكذلك اليونان لم يقبلوها وهم الذين لديهم معتقداتهم وفلسفتهم. بيد أن تنصّر الرومان فيما بعد، سمح للمسيحية بالانتشار في الغرب أولاً ومن ثمّ بين الشعوب التي كانت تجاور الأمبراطورية الرومانية والتي كانت تخضع لها ومن بينها العرب القاطنون شمالي شبه الجزيرة العربية.

ويبدو أن دخول المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية كان انطلاقاً من ثلاثة مداخل: سورية في الشمال، والعراق في الشمال الشرقي، والحبشة في الغرب.

أ ـ المدخل الشمالي:

انتشرت المسيحية في أعالي بلاد الشام، وخصوصاً بعد الانشقاقات التي حصلت في صفوف الكنيسة المسيحية. وأشهر المدن التي انتشرت فيها هي الرها، قنسرين، نصيبين، رأس العين. وفي هذه المدن التي أنشئت فيها مراكز علمية ولاهوتية، احتدم الصراع بين التيارات المسيحية المتنازعة ولا سيما بين النساطرة واليعاقبة. واستعان السريان بنقل الكثير من تراث اليونان العلمي والفلسفي، مما أغنى المناقشات اللاهوتية وساهم في توسيعها وفي الانشقاقات التي حصلت بين المسيحيين.

والكنيسة السورية كانت من أهم دعائم النصرانية، ومن خلالها انتشرت في عمق الجزيرة العربية. ففي القرنين الخامس والسادس الميلاديين أصبحت بلاد سورية التي كانت تحت حكم الغساسنة، أهم مركز مسيحي في الشرق العربي. وكان المذهب السائد فيها هو المذهب اليعقوبي المونوفيزيني، حيث اضطر الأمبراطور الروماني جستنيانوس عام ٥٣٤ م إلى تعيين أسقفين يعقوبيين

(١) نفس المرجع، ص ٧٥.

مستقلين للمناطق الواقعة على الحدود العربية، وهما يعقوب البرادعي وتيودور.

وساهم الغساسنة في انتشار هذا المذهب، وكان ملكهم الحارث بن جبلة أحد أشد المتحمسين له، وهو ساعد في نشره في جنوب الشام.

ب ـ المدخل الشمالي الشرقي:

وهو أيضاً يشمل مدن الرها ونصيبين إضافة إلى إربل وجند يسابور وسلوقية طيسفون التي أصبحت كرسياً لبطريرك الكنيسة النسطورية، وانتشرت إلى أدنى الفرات وعبر دجلة. ومن هناك انتشرت في بلاد البحرين وعمان بفضل البعثات التبشيرية، ومارست الكنيسة في الحيرة نشاطها بعزم[1].

وكان معظم ملوك الحيرة وثنيين، وأول من تنصر منهم هو النعمان بن المنذر على يد الجاثليف صبر يشوع، وقيل على يدي عدي بن زيد العبادي. ويبدو أن المنذر بن امرؤ القيس كان وثنياً يقدم ذبائح من الأسرى إلى العزى. وكانت إحدى نسائه مسيحية وهي تدعى هند بنت النعمان، أخت الأمير الغساني، وإليها ينسب دير هند الكبرى بالحيرة.

وقد تنصرت قبائل كثيرة في منطقة الحيرة والمنطقة المحيطة بها، من بينهم تغلب وبطون من بكر بن وائل الذين تركوا اسمهم في منطقة من شمالي العراق تدعى ديار بكر.

ج ـ المدخل الغربي والجنوبي الغربي:

يمثل هذا المدخل بلاد الحبشة، ومن خلاله دخلت المسيحية إلى بلاد اليمن والحجاز. وكانت المسيحية انتشرت في بلاد الحبشة قريب عام ٣٢٠ م عندما قام أحد المبشرين من أبناء سورية بإقناع الملك الحبشي «النجاشي» بترك الوثنية واعتناق المسيحية. وبعدها بفترة عشر سنوات أصبح للحبشة أسقفاً خاصاً يعينه أسقف الإسكندرية.

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٣٠.

ومن بلاد الحبشة انتقلت المسيحية إلى الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وقد ساعد أيضاً على ذلك وجود مبشرين مسيحيين سوريين، أهمهم كان الراهب «فيميون»، حيث أسس كنيسة نجران المشهورة في التاريخ وهي كنيسة يعقوبية.

وأرسل الأمبراطور البيزنطي قسطنطينوس (٣٥٦ م) إلى ملوك حميْر بعثة تبشيرية على رأسها رجل يدعى «تيوفيلوس» أقنعت الملك أنذاك باعتناق المسيحية وتأسيس ثلاث كنائس في عدن ونجران.

أما انتشار المسيحية بقوة في اليمن فقد تم بعد الاحتلال المباشر لليمن من قبل الأحباش، وبعد فرار ملك اليمن الحميري «أب كرب أسعد» إلى يثرب حيث تهوّد هناك. وقيل أنه تهوّد من قبل واضطهد المسيحيين وأحرق كنيسة نجران، وكان ذلك من أسباب غزو الأحباش لليمن.

لكن الحميريين عادوا واستعادوا بلادهم ثانية على يد ملكهم «كرب يوهنعم» عام ٣٥٧ م، فعاد الأحباش وغزوا بلاد اليمن ثانية عام ٥٢٥ م، حيث انتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً. وغدت نجران مركزاً تبشيرياً رئيسياً، حاول من خلاله «أبرهة» حاكم اليمن الحبشي أن ينشر المسيحية. ويقال أنه أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن واهتم بزينتها وزخرفتها، أشهرها القليس في صنعاء وهي تعريب لكلمة «Ecclysia» اليونانية بمعنى الكنيسة، وزخرفها... ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة. ويظهر أنه استعان في بنائها بأنقاض من قصور ملوك حمير السابقين ومعابدهم القديمة.

وكان الرقيق الحبشي الذي تعج به مكة نصرانياً، وكان هناك عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر وأنه كان بها حوار روميات. وكان يعيش في الظهران راهب مسيحي، وأن قوماً من العرب تنصروا قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبي وهب، وعثمان بن الحويرث الأسدي. ويبدو أن

بعض النصارى تواجدوا في المدينة[١].

٢ ـ أماكن تواجد النصرانية في شبه الجزيرة العربية:

ـ مملكة الغساسنة والمسيحية:

دخلت المسيحية إليهم من مجاورتهم للروم ولدخولهم أحياناً تحت طاعتهم. ويبدو أن المسيحية عُرفت عندهم باكراً، أي منذ أيام عمرو بن جفنة، أي ثاني أمرائهم، وهو أقام عدة أديرة منها دير حالي، ودير أيوب، ودير هناد[٢].

وحاول الملك الغساني الحارث بن جبلة أن يؤسس أسقفية عربية يتولاها يعقوب البرادعي وزميله ثيودوروس، وسعى لأجل ذلك عند ملوك بيزنطة، ولكنه لم يوفق لأن البيزنطيين كانوا يعارضون المذهب المونوفيزيتي الذي ينتمي إليه الحارث وينشره يعقوب البرادعي. ومع أن الغساسنة كانوا يحكمون في الجابية من أرض الجولان، إلاّ أنهم تمكنوا من التأثير على جميع القبائل العربية في فلسطين وعلى عرب سوريا الشمالية.

إلاّ أنّ البيزنطيين لم يكونوا راضين عن انتشار المذهب اليعقوبي في بلاد الشام، فدبروا محاولة قتل المنذر بن الحارث المتعصب لهذا المذهب والذي لم يكن غافلاً عما يدبر له، لكنه نجا من هذه المؤامرة وبقي متحمساً لمذهبه عاملاً على نشره.

ومن أهم المراكز المسيحية في الشمال، بلدة حوارين، وهي تقع بين تدمر ودمشق، وقد أنشأ فيها حاكم سوريا الروماني كنيسة دعا إلى حضور حفل افتتاحها المنذر بن الحارث، حيث قبض عليه وأرسله أسيراً إلى القسطنطينية.

ـ تدمر والمسيحية:

انتشرت المسيحية في تدمر في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي،

---

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ١٠٠.
(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٩٨.

وقتل بعضٌ منهم نظراً لاضطهاد «دقلديانوس» لهم. ثم أصبح لتدمر أسقفية في القرن الرابع الميلادي، من أهم أساقفتها «مارينوس» الذي حضر المجمع النبقاوي عام ٣٢٥ م، والأسقف يوحنا الذي ورد اسمه في أعمال مجمع خلقدونة عام ٤٥١ م.

ـ مملكة المناذرة والمسيحية:

عرف عرب الحيرة أيام المناذرة المسيحية على المذهب النسطوري. وكان العبّاد إحدى ثلاثة طوائف سكنت الحيرة، وهم قوم من نصارى العرب ومن قبائل شتى اجتمعوا وسكنوا، وبنوا قصوراً في ظاهر الحيرة، وسمّوا عباداً لأنهم عبدوا الإله الخالق. والعباد يتألفون من ثلاثة قبائل مختلفة: تميم ولخم والأزد وهم رغم اختلافهم في النسب جمعتهم وحدة الدين. لذلك لم يطلق اسم العبّاد إلاّ على نصارى الحيرة، ولمّا عمّتْ المسيحية وأصبحت دين الحيرة، دخل معظم أهلها في هذه الديانة، أصبح اسم العبّاد يطلق على جميع مسيحييها لتمييزهم عن بقية المسيحيين العرب.

وفي عهد النعمان الأول بن امرىء القيس الثاني (٣٩٠ ـ ٤٨١ م) بدأت المسيحية تتعزز بعد أن كانت قد نبتت في عهد امرىء القيس الأول. فقد اجتذب انعزال القديس سمعان العمودي، على قمّة جبل بسوريا عدداً كبيراً من عرب الحيرة العبّاد يقصدونه للتبرك والشفاء. وخاف النعمان من هذه الظاهرة وهدد القديس سمعان العقـاب فأتاه بالمنام محوطاً بشماسين وأمرهما بضرب النعمان. ولمّا استفاق النعمان من رؤياه منهكاً عليلاً أيقن أنّ هذه الرؤيا هي إنذار سماوي. نتيجة ذلك أباح النعمان حرية ممارسة شعائر المسيحية في الحيرة، كما أباح بناء الكنائس. ويروى عنه أخبار كثيرة في كيفية تنصره ومن ثم ارتدائه مسوح الرهبان واختفائه عن الأنظار[١].

ولم يكن ملوك المناذرة يتوارثون أديانهم عن بعض، بل ربما كان بعضهم وثنياً ثم يعود ويدخل في النصرانية إثر حادثة ما. ومن ملوك المناذرة المتنصرين

(١) راجع هنا كتاب الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٣٥.

النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٥) الذي أقام الكنائس العظيمة في الحيرة.

ويبدو أن الحيرة كانت مهمّة على صعيد المدارس الدينية، فقد تلقى فيها إيليا الحيري مؤسس دير مار إيليا دراسته الدينية في إحدى مدارسها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مار عبدا الكبير. وفي الحيرة أيضاً تعلم المرقش الأكبر وأخوه حرملة الكتابة على يد أحد النصارى من أهلها. ويذكرون أن الصبيان في الحيرة، كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في إحدى الكنائس «كنيسة النقيرة».

الكنائس والأديرة في عصر المناذرة:

أصبحت الحيرة مركزاً أسقفياً تابعة لكرسي جاثاليق المدائن. ومن كنائسها المشهورة كنيسة تنسب إلى قوم من الأزد من بني عمرو بن مازن الغسانيين وتسمى بيعة بني مازن، ومنها بيعة بني عدي التي تنسب إلى بني عدي بن الذميل من لخم، ومنها كنيسة الباغوته التي اعتبرها الهمداني إحدى مراكز سبعة للعبادة عند العرب، ومنها بيعة دير اللج بظاهر الحيرة.

أما الأديرة، فمنها ما يعود إلى ملوك الحيرة ومنها ما يعود إلى أمرائها أو لأفراد من العباد الأشراف. من أديرة الملوك.

١ ـ دير اللج: بناه النعمان بن المنذر في أيام ملكه، ويعتبر من أجمل أديرة الحيرة، وقد ذكره الشاعر جرير فقال:

يا رب عائذة بالفور لو شهدت عزت عليها بدير اللج شكوان

وهذا الدير كان يقصده النعمان كل يوم أحد مع كامل أسرته، حيث يقضون الصلاة.

٢ ـ دير مارت مريم: يقال أنّ المنذر هو الذي بناه بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخضيب، وكان مشرفاً على النجف.

٣ ـ دير هند الكبرى: بنته هند أم عمرو بن هند في زمن مار أفريم الأسقف وهو يقع بالقرب من دير اللج على طرف النجف.

٤ ـ **دير هند الصغرى**: بنته هند ابنة النعمان بن المنذر وأقامت فيه حتى ماتت ودفنت فيه. ويبدو أن هذا الدير كان يقع في موضع قريب من خندق القادسية ويقارب خطة ابن دارم بالكوفة(١).

ومن أديرة الخاصة:

١ ـ **دير بني مرينا**: ينسب بناء هذا الدير إلى أسرة مرينا من أشرف أسر الحيرة. وهو يقع في موضع جفر الأملاك الذي فيه ضربت أعناق بني حجر بن عمرو بن حجر آكل المرار بأمر المنذر بن النعمان.

٢ ـ **دير الجماجم**: ينسب إلى بني أياد. ويروى في تسميته عدة روايات(٢).

٣ ـ **دير عبد المسيح**: يعود بناؤه إلى عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني، وكان يقوم بظاهر الحيرة في موضع يسمّى الجرعة.

٤ ـ المسيحية في الحجاز وعمق بلاد العرب:

دخلت المسيحية إلى قلب بلاد العرب، أي أواسط الجزيرة العربية عن طريق المبشرين والرهبان والتجار النصارى. ومن الأماكن التي تواجدت فيها النصرانية «دومة الجندل» التي صالحت نبي الإسلام ودفعت له الجزية. وكان في وادي القرى جماعة من الرهبان يستدل على وجودهم من شعر جعفر بن سراقة أحد بني قرة الذي يقول:

فريقان: رهبان بأسفل ذي القرى　　وبالشأم عرافون فيمن تنصرا(٣)

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٩.

(٢) راجع كتاب الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ٧، ص ١٠١.

وقد تنصرت قبيلة طيء، وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً، حيث دخل في الإسلام عند ظهوره.

وفي يثرب كان بعض المسيحيين المقيمين فيها إلى جانب اليهود وقد بقوا فيها حتى بعد هجرة الرسول وموته. يقول حسّان بن ثابت:

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد

وعرفت مكة بعض النصارى الذين نزلوا فيها، وهم غرباء مستوطنون، دخلوا إليها مبشرين وتجاراً وحرفيين ورقيق. وقد أثّر هؤلاء في محيطهم وتنصر بعض العرب على أيديهم.

وعرفت مدينة الطائف أيضاً بعض من الموالي النصارى، منهم «عدّاس» النينوي الأصل والذي كان مملوكاً لعتبة بن ربيعة[1].

أما اليمامة والتي عدّها ياقوت الحموي من نجد وسمّاها (جوّا) فقد دخلت إليها النصرانية، حيث تنصر أحد حكامها «هوذه بن علي»[2].

أما شرق شبه الجزيرة العربية، فقد عرف النصرانية التي وجدت سبيلاً لها في البحرين وقطر وبعض الجزر الخليجية. وكانت النصرانية المنتشرة في هذه الأصقاع على المذهب النسطوري[3]، أي مذهب نصارى العراق وفارس.

ـ جنوبي بلاد العرب والمسيحية:

يرجح الدكتور جواد علي أن يكون رسول قسطنطين الكبير ملك بيزنطة، وهو تيوفيلوس وراء انتشار المسيحية في اليمن، حيث نصّر أبناءها وأقام كنيسة في ظفار وأصبح هو رئيس أساقفتها، وأشرف أيضاً على إنشاء كنائس أخرى منها كنيسة نجران[4] التي تعتبر المركز الأساسي الذي انتشرت منه المسيحية في

---

(١) الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام.

(٢) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ٦٤٨.

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤٥٧.

اليمن وجنوبي شبه الجزيرة العربية. وتعمقت المسيحية أكثر بعد حملة الأحباش الثانية على الجنوب اليمني ومنها انتشرت في العمق والشمال. ولن نعود إلى تكرار ما قلناه سابقاً عن المراكز الأساسية للمسيحية في اليمن (ظفار، نجران، صنعاء وغيرها) إلاّ أننا ربما أمكننا أن نعتبر أن جنوبي شبه الجزيرة العربية هو المعقل الحصين لانتشار هذه الديانة بين العرب، والتي بقيت حتى بعد مجيء الإسلام، حين صالح محمد نبي الإسلام الكثير من نصارى العرب الجنوبيين على دفع الجزية. ويبدو أن المذهب النسطوري هو الذي كان سائداً في هذه المنطقة من العالم العربي، وقد شجّع على ذلك ملوك الفرس بعد دخولهم اليمن، وملوك الحيرة نتيجة اتصالهم بعرب الجنوب.

ـ العادات والتقاليد عند النصارى العرب:

أ ـ الأعياد: من أعيادهم ما يسمّى بعيد «السعانين» وهو ما يُعرف اليوم بـ «الشعانين»، وقد ورد ذكره عند النابغة الذبياني بشعر مدح به أحد ملوك غسان النصارى ناعتاً إياه بيوم السباسب[1]:

رقاق النعال طيّب حجزاتهم　　　يحبّون بالريحان يوم السباسب[2]

فالناس تخرج في هذا اليوم من دور عبادتهم وهم يحملون قضب الريحان، وأعواداً تعلق عليها أكسية الأضريح، وأولاداً يلبسون الثياب البيضاء ويحملون الشموع المحاطة بأغصان الزيتون وقضب الريحان وأغصان النحل. هذه المسيرة تسمّى «الزيّاح» يقول ابن الأثير: السعانين عيد للنصارى يقع قبل عيدهم الكبير بأسبوع[3].

أما خميس الفصح فهو عيد يلي السعانين بثلاثة أيام ويذهبون فيه إلى الكنائس. ثم يأتي العيد الكبير، وهو عيد الفصح، يحتفل به الجاهليون

---

(١) الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٦.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص ١٢.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٣، ص ٢٠٩.

فيوقدون المشاعل ويعمرون القناديل ويضيئون الكنائس بالسرج، ويحتفلون بالفصح. يقول عدي بن زيد العبادي:

بكــروا علــيَّ بسحــرة فصحبتهــم بـإنـاذي ذي كـرم كعقـب الحـالـب
بـزجـاجـة مـلء اليـديـن كـأنهـا قنديـل فصح في كنيسة راهـب[2]

ومن تقاليدهم التي مارسوها، زيارة الأضرحة والمقابر أيام الأعياد، يصلون قربها لراحة الموتى، وإظهاراً لشعورهم بأن المفارق لا يزال حبه في القلوب[3].

وذكرت صلوات وتعبدات النصارى العرب وخصوصاً الرهبان والنساك الذين اعتكفوا في الصوامع والأديرة النائية، في أشعار الجاهليين. يقول عدي بن زيد العبادي:

وأوتينـا الملـك والإنجيـل نقـرؤه نشفـي بحكمتـه أحـلامنـا علـلا[4]

كما أنهم مارسوا الصلاة فرادى وجماعات، ورتلوا المزامير بأنغام، وقد عُرِف ترتيل القسيسين بـ (الهينم) وهو النغم بأصوات خافتة. كما عرفوا التلحين في الصلاة[5].

ولقد عرف النصارى العرب في الجاهلية «التصبيغ» أي التعميد، وفي ذلك نجد في لسان العرب ما يقوله الفراء: إنما قيل صبغه لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم كالتطهير والختانة[1].

أما اللغات التي استعملها العرب في طقوسهم الدينية فهي مختلفة، فربما

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الفكر للجميع، بيروت، ج ٩، ص ٥٣.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٦٦١.
(٣) مقتبسة عن الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٩.
(٤) يقول ابن منظور، لسان العرب، مجلد ١٣، ص ٣٨٣. اللحن: التطريب وترجيع الصوت وتحسين القراءة وأن النصارى يقرؤون كتبهم نحواً من ذلك.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٨، ص ٤٣٧.

تكلموا العبرانية والإرمية والسريانية واليونانية والحبشية والعربية بأزمان مختلفة وأماكن متعددة[1].

المعاني الدينية في شعر العرب النصارى:

نجد في الشعر الجاهلي بعض المفاهيم الدينية، وبعض التعابير والألفاظ والتي تنم كلها عن إيمان بمعتقدات سماوية موحى بها. فقد تحدثوا في القضاء والقدر والعدل والثواب والعقاب والخير والشر والعطاء والتوبة، والموت والحياة، والزهد والعبادة وغيرها مما نجد أثره مستمداً من النصرانية.

ففي الزهد وزوال هذه الدنيا الفانية يقول عدي بن زيد العبادي:

ليس شيء على المنون بباق ... غير وجه المسبَّح الخلّاق[2]

وهو يذكر الناس بأن هذه الدنيا فانية وزائلة، وهناك من سبقنا ونحن لاحقون لهم:

أيها الركب المخبون ... على الأرض المجدون
كما أنتم كنا و ... كما نحن تكونون[3]

ويقول أيضاً:

من رآنا فليحدث نفسه ... إنه موف على قرن زوال

ويذكر الأب جرجس داود، أن نصارى الجاهلية قد حدثوا غيرهم بحكايات العهد العتيق من الكتاب المقدس، فعرف العرب الوثنيون منهم قصة خلق الأرض والإنسان. كما حدّثوا بالعهد الجديد وما فيه من معاني الزهد في الحياة وعدم الاهتمام بها[5].

وعن اعتقادهم بالقدر وبتقسيم الأرزاق والتوكل، يقول أوس بن حجر:

---

(١) الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٣.
(٢ ـ ٣ ـ ٤) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢، ص ٢٦، ٣٤.
(٥) الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٥.

ولسـت بخـابـيء أبـداً طعـامـاً   حـذار غـد لكـل غـد طعـام

ويقول الأعشى:

استـأثـر الله بـالـوفـاء وبـالـ   ـعـدل، وولّـى المـلامـة الـرَجُـلا
والأرض حمـالـة لمـا حمَّـل اللّـ   ـه ومـا إن تـرُدَّ مـا فعـلا[2]

ويقول عنترة في القضاء والقدر:

إذا كـان أمـر الله أمـراً يقـدّرُ   فكيـف يَعـزُّ المـرءُ منـه ويحـذرُ
ومن ذا يردُّ الموت أو يدفع القضا   وضـربتـه محتـومـة ليـس تعثـرُ

ويقول أيضاً:

أدافـع الحـادثـات فيـك، ولا   أطيـق دفـع القضـاء والقـدر[3]

وفي يوم الحساب والبعث يقول زيد بن عمرو بن نفيل:

فلـن تكـون لنفـس منـك واقيـة   يوم الحساب إذا ما يجمع البشر[4]

وأخيراً في ختام هذا الباب نتبين أن الأديان السماوية الموحى بها، كان لها انتشاراً واسعاً في شبه الجزيرة العربية، أثّر إلى حد بعيد في كيفية تكوين ذهنية وعادات وتقاليد العرب. وربما كان الأثر متبادلاً بين العادات السائدة وما أوحت به الأديان السماوية بحيث احتفظت بما هو جيد منها، إضافة إلى أن العرب اعتنقوا هذه الديانات من حنيفية ويهودية ونصرانية بما يتلاءم مع تفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم وبناهم الذهنية. فانصاغ الإيمان عندهم كلٌ بحسب طريقته الخاصة، لذلك لا تجد المسيحية الصافية ولا اليهودية المميّزة عند العبرانيين. من هنا كان التمييز واقعاً كما أشرنا في محله بين اليهود العبرانيين واليهود العرب، وبين النصارى من غير العرب (الأحباش والروم) والنصارى العرب.

---

(١) نفس المرجع، نفس الصفحة. هذا الكلام مقتبس عنه.
(٢) نفس المرجع، ص ٢٧٦. هذا الكلام مقتبس عنه.
(٣) نفس المرجع، ص ٢٨٠. هذا الكلام مقتبس عنه.
(٤) نفس المرجع، ص ٢٨٤. هذا الكلام مقتبس عنه.

الباب الثالث
المعتقدات عند العرب

الفصل الأول

الأديان الوضعية

ماذا نقصد بالمعتقدات؟ وماذا نقصد بالأديان الوضعية؟

لقد بينَّا القصد من القول «معتقدات» وهي كل ما لا علاقة له بالأديان السماوية الكتابية، ولكنَّها تشكل في ذهنية الناس تعلقاً بقوى معيّنة تعتبرها أقوى منها فتعتقد بها، أي تعبدها وتسلّم مصيرها إليها.

أمّا الأديان الوضعيّة فهي تلك المعتقدات التي صيغت في مذاهب وأفكار معيّنة ودوّنت في كتب، دون أن تكون موحاة من السماء، بل هي من وضع البشر.

وعليه فإن بعض الديانات الوضعية التي عرفها العرب يمكن إجمالها بالتالي:

١ ـ المجوسية، ٢ ـ المزدكية، ٣ ـ المانوية.

١ ـ المجوسية:

وهي نحلةٌ، عُرِفت عند بعض الجاهليين عن طريق الفرس الذين كانوا يعتقدونها.

أنشد أبو علي النحوي:

أحـار أريـك بـرقـاً هـبَّ وهنـاً كنـار مجـوس تستعِـرُ إستعـارا

ويقال إن صدر البيت هو لامرىء القيس، وعجزه للتوأم اليشكري.

والمجوسية نحلة تقول بأصلين: النور والظلمة، وتزعم أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة. وقد ورد في الحديث الشريف: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه**»[1]. وفي الحديث أيضاً: «**القَدَرية مجوس هذه الأمّة**» لأنهم يضيفون الخير إلى الله والشر إلى الإنسان والشيطان.

والمجوس يقدّسون النار والنور، وهي عندهم رمز لكثير من الأمور، وقد أخذ بعض العرب عنهم هذه الاعتقادات إمّا عن طريق الحيرة وإمّا عن طريق اليمن التي احتلها الفرس بعد أن طردوا الأحباش منها. وقد كان لمكة اتصال وثيق بالحيرة، كما كان للحجاز اتصال باليمن[2].

ويعتبر جواد على أن لفظة «مجوس» معرّبة عن الفارسية «فعوس» التي تعني عابد النار[3].

أما عن انتشار المجوسية بين العرب فقد قيل أنها كانت في تميم وقد اعتنقها بعض سادات هذه القبيلة ومنهم: زرارة بن عدس وابنه حاجب بن زرارة، الأقرع بن حابس، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان.

أمّا في العربية الجنوبية، فقد كان المجوس من الفرس المقيمين والتجار. وأمّا في البحرين فقد كان عددهم كبيراً نظراً لقرب اتصالهم بالأمبراطورية الساسانية. وكان في عمان مجوس وكذلك باليمامة حيث اشتغلوا بالزراعة وبالتعدين[4].

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق د. سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٢، ص ٥١. راجع أيضاً ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٦، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٢) جواد علي: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٦٩١.
(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٦٩١.
(٤) نفس المرجع، نفس الصفحة.

ويُعرَف عالِم المجوس بـ «الموبذان» وبـ «الموبذ» ويُعرَف كبيرهم بـ «موبذان موبذ»، وتعني الموبذ الأعظم. . . وهي من الألف المعرّبة عن الفهلوية. وهناك لفظة أخرى لها صلة بالمجوسية هي «الهربز» و «الهرابذة». وذكر العلماء في اللغة أن «الهرابزة» المجوس، هم خدمة بيت النار التي للهند. . . وقيل عظماء الهند أو علماؤهم. واللفظة من الألفاظ المعرّبة عن الفارسية من أصل «هور» و «بت» بمعنى رئيس خدام النار، والموكل على خدمة النار في المعبد[1].

والحقيقة أنّ هذه الديانة الفارسية الأصل تركت أثراً بين العرب وخصوصاً في بعض اعتقاداتها ومنها تقديس النار وعبادتها. فقد لعبت النار عند العرب دوراً مهماً في كثير من عاداتهم وتقاليدهم، فإذا بها نار للتحالف تعقد حولها الأحلاف فتكون لها من الحرمة والقدسية ما تضفيه عليها النار المقدسة التي أضرموها، وتقسم أمامها اليمين في مواقف الخصام.

وقد تضرعوا لها للاستمطار، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فاختلطت معتقداتهم فيها بالخرافات والأقاويل. فنارهم هي «نار المهوّل» مرة و «نار السعالى والجن وغيلان» مرة أخرى. . . وهي «نار الغدر» و «نار الطرد» و «نار الحرب» و «نار العيد» و «نار الأسد» و «نار العداء»[1]. . .

٢ ـ المرذكية:

وهي أيضاً من الاعتقادات السائدة عند الفرس. والمزدكية تعود إلى مزدك وهو الذي كان يستحل المحارم. ولا نعرف الكثير عن مدى انتشار هذه الديانة بين العرب، إلاّ أنّ هناك إشارات إلى احتمال وجودها عند أحد ملوك الحيرة وهو الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ٥٢٤ ـ ٥٢٨ م، الذي قَبِل بالمزدكية

---

(١) نفس المرجع، ص ٦٩٥.
(٢) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٦٩٨.

وعيّن ملكاً على الحيرة بعد أن رفض المنذر بن ماء السماء اعتناقها بناء على طلب قباذ ملك الفرس.

وكان المزدكيون زنادقة أي يشركون مع الإله الواحد إلّه آخر، ولما تولى كسرى أنوشروان ملك فارس حاربهم وخلع الحارث بن عمرو بن حجر الكندي وأعاد المنذر بن امرؤ القيس المعروف بابن ماء السماء، إلى ملكه.

كما يُنسب إلى النعمان بن المنذر أنه أنِفَ من اعتناق المرذكية وتنصَّر.

وهذا مما يدل على أن هذه الديانة، كانت معروفة وربما منتشرة ولو بشكل محدود في الحيرة.

والزندقة نوعان: زندقة ثنوية، وهي القول بإلهين، كالقول بألوهية النور وبألوهية الظلمة، ومنها المزدكية والزردشتية والمانوية أتباع «ماني» الذي يدعو إلى الأتنينية.

وهناك زندقة دهرية أي لا تؤمن بوجود إله بل تؤمن بالدهر فقط وهذا ما سمّي عند المسلمين بالدهريين.

٣ ـ المانوية:

نسبة إلى «ماني» الذي قاد حركة دينية انشقاقية عبر المسيحية في القرن الثالث الميلادي. وكان ماني يعتبر نفسه رابع ثلاثة تقدموه «المسيح، زرادشت، بوذا» ويقول عن نفسه أنه الفارقليط الذي قال عنه المسيح (حينما أذهب أرسل إليكم المعزى أي الروح القدس). وهو يدعي أنه يكمل ما جاء به المسيح، وأنه خاتم المرسلين، وكان يتصرف بالأناجيل حسب ما يريد حذفاً وإثباتاً. وأخطر ما واجه به المسيحية قوله أن المسيح قد جاء رجلاً كاملاً، وأنه لم يصلب ولم يمت، بل الذي صُلب ومات هو الشيطان. ورفض العهد القديم، وتهكم على أنبياء إسرائيل وحمل على اليهود[1].

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة مصر ١٩٧٠، ص ٢٥٩.

لقد لقيت المانوية اضطهاد البلاط الساساني، وعندما تولى هرمز بن سابور الحكم، قبض على ماني وقتله وعلق جسده على باب مدينته جنديسابور، التي تعرف إلى الآن ببوابة «ماني». ولا نعرف بالضبط مدى انتشار هذه العقيدة عند العرب، ولكن الملاحظ أنها كانت حاضره عندهم، بدليل حضورها في العصر الإسلامي وخصوصاً في القرن الأول الهجري ومساهمتها في النشاط الثقافي والعلمي.

الفصل الثاني

الوثنية والصنمية

نقصد بهذين الاعتقادين، أي عبادة الأوثان والأصنام. فكل من اتخذ إلهاً من دون الله غير المرئي واللامتناهي، فهو وثني أو صنمي. والوثنيون يؤمنون بقوى إلهية كثيرة تنبثُ في الكواكب وفي قوى الطبيعة، وقد ألّهوا الأحجار واتخذوا من منحوتاتها أصناماً آلهة.

أ ـ الصنمية والوثنية عند العرب:

كانت عبادة الأصنام منتشرة بين العرب انتشاراً واسعاً، والحقيقة أنهم صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم. وقد يرون في بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم[١].

وفي الآية الكريمة: ﴿**تلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبّار عنيد**﴾[٢]، وأيضاً: ﴿**قالوا يا هود ما جئتنا ببينة، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك**﴾[٣]. وهذا يعني أنّ قوم عاد أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا[٤].

لكن في أي زمن بدأت عبادة الأصنام عند العرب؟ يبدو أن تحديد هذه

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ٨٩.

(٢) سورة هود، ١١، آية ٦٢.

(٣) سورة هود رقم ١١، آية ٥٦.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، طبعة مصر، ١٣٤٨ هـ، ج ١، ص ١٢١.

المسألة صعب جداً، ويبدو أيضاً أن الشعوب المجاورة للعرب أنذاك كانت متقدمة في مسألة الاعتقادات والديانات. وعليه فإن اتصال العرب بهذه الشعوب هو حلقة الوصل التي أفضت إلى دخول هذه الاعتقادات إليهم.

هناك روايات تفيد أن تأليه الأحجار أو تقديسها يرجع إلى ما قبل أسطورة «عمرو بن لحي» الذي كما يقولون نشر عبادة الأصنام في بلاد العرب بعد جلبها من الشام وجدّة[1].

فالعرب عندما بدأوا ينزحون عن مكّة، وبعد بناء إبراهيم لها مع ابنه إسماعيل، ولما كانوا يعظمونها ويقدّسون حجارتها، أخذوا يحملون معهم في ترحالهم بعضاً من حجارتها ومن الحجارة المجاورة لها، تيمناً بقدسيتها وألوهيتها. وأينما حلوا كانوا ينصبون هذا الحجر ويطوفون حوله كطوافهم حول الكعبة، فيغدو الحجر عندهم مقدّساً، ثم يرقى إلى التأليه فالعبادة. ومن هذا يظهر أن الوثنية فيهم قبل عمرو بن لحي بما عبدوه من حجارة الحرم في أسفارهم[2].

من هو عمرو بن لحي؟ وفي أي زمن عاش؟ يقولون أنه هو الذي قاتل الجراهمة وأخرجهم من مكة وتولى هو حجابة البيت. والمعروف أن إسماعيل بن إبراهيم تزوج من فتاة جرهمية، وهو كان ساعد والده في بناء الكعبة. وبذلك يكون تأسيس الكعبة وبنائها قد تم قبل عمرو بن لحي. وبعضهم يعيد هذا التأسيس إلى «مضاض بن عمرو الجرهمي» الذي تزوج بابنة إسماعيل، وفي نفس الوقت بنى الحرم الذي أعطى مكة سيادتها على المدن العربية.

وقبيلة جرهم كانت تنزل بواد قريب من مكة، ولم تخرج منها إلا على يد ملك بابل نبوخذ نصر الذي غزا قلب الجزيرة العربية. ثم أيضاً أن جرهماً لما طغت وبغت، حتى فسقت في الحرم هاجمتهم خزاعة وأجلت من تبقى منهم.

---

(١) محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٤٧.

(٢) محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٤٧.

وقبيلة خزاعة قبيلة جنوبية، هاجرت إلى الشمال بعد انهيار سد مأرب، وافتتحت الحرم[1].

ومن الروايات التي تتهم عمرو بن لحي بإفساد تعاليم الحنيفية، أنه فعل ذلك بعد أن ساد مكة وصار كاهناً له رئي من الجن.

ويؤكد الشهرستاني أن عمرو هذا قد أتى بـ «هبل» (الصنم) إلى مكة في زمن سابور ذي الأكتاف الذي ـ على رأي الطبري ـ قد هادن قسطنطين ملك الروم باني مدينة قسطنطينية، وهذا يعني في النصف الأول من القرن الثالث للميلاد.

ورغم تضارب الروايات في تحديد زمان وبداية عبادة الأصنام عند العرب، فإننا نرى أن تحديد هذه المسألة لا يتطلب منا إرجاعها إلى شخص معيّن، بل ربما كانت حالة نتجت عن وضع معيّن. فالإنسان كما تعرف هو دائماً مشدود إلى قوى خفية يعتبرها أقوى منه وتسيّره. ولربما كان بناء الكعبة على أيام إبراهيم وابنه إسماعيل، وما روي عن هذه المسألة في قصة الحجر الأسود وكيف وجده إبراهيم ما يشير إلى بداية خلع القداسة على الأحجار. وربما كان ذلك سوء فهم من الأعراب، ولكن هذه العادة سرت بينهم وتقبلوها نظراً لسذاجتهم وفطرتهم، فحملوا معهم الأحجار وقدسوها وأسبغوا عليها تمنياتهم وألهوها حين شعروا بالحاجة إلى ذلك.

١ ـ الصنم:

«هو ما كان له جسمٌ أو صورة»[2] وهذا يعني أنه تشخيص اعتقاد ما، وإعطائه هيئة ما، غالباً ما كانت هيئة أشخاص تخيلوها أو هيئة حيوان ما.

---

(١) نفس المرجع، ص ٤٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٢، ص ٣٤٩.

أمّا ابن الكلبي فقد عرّفه: «ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة، صورة إنسان فهو صنم»[1].

وفي الشعر الجاهلي لا نكاد نعثر على مفاهيم واضحة ولا على تعابير تحدِّد اتجاهاً اعتقادياً مميزاً. لقد اختلطت الأمور وتمازجت، وغدت الصنمية والوثنية متواجدة في البيت الواحد إلى جانب التوحيد. فمع ذكر الأصنام ورجاء الأوثان يُذكَر اسم الله. وقد وردت تعابير كثيرة تنم عن توجهات وثنية صنمية وفي آنٍ قد تعني شيئاً آخر. مثل ذلك لفظة «رب» ولفظة «إلّه»، فقد يكون الرب معبود الإنسان صنماً وقد يكون الإلّه وثناً.

وقد وردت لفظة صنم نادرة في الشعر الجاهلي، وإن كنّا قد التقطنا هذه اللفظة في هذا البيت من الشعر لعبيد بن الأبرص:

وتبدلوا اليعبوب بعداً لهم صنماً فقَروا يا جديل وأعذبوا[2]

وفي القرآن[3] وردت لفظة «صنم» على صيغة الجمع «أصنام»، وهي وردت في الآيات التي تتحدث عن قوم موسى، والتي تتحدث أيضاً عن إبراهيم وأبيه وقومه.

أمّا لغوياً، فقد قيل إن اللفظة معرّبة عن «شمن» كما ورد في تاج العروس، دون أن نعرف عن أي لسان. على أن بعض علماء اللغة من الأوروبيين يرجع لفظة «شنم» التي عرّبت عنها لفظة «صنم» إلى Selem بمعنى صورة في العبرية، و S-L-M اسم إلّه ورد ذكره في نقوش آرامية بتيماء[4].

---

(١) هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٥٣.

(٢) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص ٣٢. مقتبسة عن: د. صادق مكي، ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، ص ٣٠.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٣٤. سورة الأنعام، آية ٧٤. سورة الشعراء، آية ٧١. سورة إبراهيم، آية ٣٨. سورة الأنبياء، آية ٥٨.

(٤) اقتبسنا هذه المعلومات عن كتاب، الدكتو محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٣٧.

ويرى البعض أن لفظة صنم مأخوذة من لفظة «صلم» العبرانية أو الأرامية، وأن صلـم وصلمـن مـن الكلمـات التي وردت فـي نصـوص المسنـد بمعنـى تمثال[1].

أما الأخباريون المسلمون، فقد جاء عندهم أنّ أول من نصب الأصنام في مكة هو عمرو بن لحي الذي أقام صنماً على بئر في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته. هذا الصنم يقال له «هُبْل» وهو من أهم أصنام العرب في الجاهلية، وكان عمرو قد أتى به من هيت من أرض الجزيرة[2]. أما الكلبي فيذكر في كتاب الأصنام، إن أول من نصب صنماً هو خزيمة بن مدركة... بن مضر»[3].

ويُنسب أيضاً إلى عمرو بن لحي، بالإضافة إلى ما تقدم، أنه هو الذي أمر أيضاً بعبادة الصنمين «آساف ونائلة»، وعن طريقه تسربت عبادة الأصنام إلى العرب وتزايدت. وإن كنا لا نميل إلى تقرير هذه الرواية، على اعتبار أن عبادة الأصنام والأوثان أقدم من زمان عمرو، إلاّ أننا نؤكد على أهمية هذه الشخصية في التاريخ ودورها في تركيز عبادة الأصنام والدعوة إليها، حتى عمّت السواد الأعظم من العرب.

روي عن ابن عباس أنه قال: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثماية وستون صنماً، فطاف على راحلته وهو يقول: «**جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً**» وأشار إليها فوقعت جميعها»[4].

٢ ـ الوثن:

وهو أيضاً اصطلاح للدلالة على التماثيل التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية.

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤١٢.
(٢) الأزرقي، أخبار مكة، دار الأندلس، ج ١، ص ١١٧.
(٣) الكلبي، الأصنام، ص ٢٨.
(٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، ص ١٢١.

وهذه اللفظة أيضاً من الكلمات العربية القديمة التي وردت في نصوص المسند ويقصد به الصنم الذي يرمز إلى الإلّه.

ومع ورود لفظتي «صنم» و«وثن» في المسند وفي مواضع مختلفة، يتضح أن هناك اختلافاً بينهما في الدلالة. ويذكر إبن الكلبي، إنّ كل تمثال معمول من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو صنم، «وإذا كان من حجارة فهو وثن»[1]. ويقول الدكتور جواد علي، أن الأوثان كانت تماثيل منحوتة من الحجر ترمز إلى الآلهة، وإليها تذبح الذبائح وتقدم القرابين[2].

أما ابن منظور في لسان العرب فيقول: «قال ابن عرفة: ما إتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن» وهو يزيد فيقول: «الفرق بين الوثن والصنم، أن الوثن كل ما له جبّة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويُعْبد، والصنم الصورة بلا جثة»[3].

ومهما كان من أمر، فإن الخلط بين الوثن والصنم كان أمراً معروفاً من خلال كتب الأخباريين، ولم يكن الفصل واضحاً بينهما. بيد أنه بما لدينا من روايات يمكننا أن نميّز بين الاثنين على الشكل التالي:

إن الأصنام هي تلك الأشكال التي صنعت إمّا على صورة إنسان أو حيوان، ومن خشب أو فضة أو أي معدن آخر، ووضعت في حضرة الآلهة.

أما الأوثان فهي الأشكال المصنوعة من الأحجار وقد لا تكون شكلاً محدداً أيضاً، وهي تعتبر مقدّسة وقد عبدها الأعراب قياساً، على ما عرفوه من قدسية أحجار الكعبة. وغالباً ما تكون الأوثان أحجاراً صغيرة أو كما يقولون الوثن هو الصنم الصغير.

---

(١) الكلبي، ألاصنام، ص ٥٣.
(٢) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٧٨.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ١٢، ص ٣٤٩.

وفي تاج العروس، سُمّي وثناً لانتصابه وثباته على حالة واحدة من وثن بالمكان أقام به فهو واثن[1]، وذكر أيضاً أن الوثن ما لا صورة له.

وقال السهيلي: يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره[3]. هذا الكلام يخالف ما يراه بعضهم من أن الوثن لا تعني شيئاً سوى الحجر[4]. وبهذا يوافق الزبيدي في قوله أن الوثن ما لا صورة له كما ذكرنا. ويستخلص «كرنكو» جملة من أمثال هذه الأقوال المتضاربة فيقول: «إن الصنم شيء يُعبد من دون الله، له شكل مصنوع من حجر أو خشب أو معدن، ويميّز عن الوثن بأن هذا ليس له جبّة وإنما يذكر مرادفاً لما عليه من رسم أو صورة»[5].

وهذا أيضاً ما نذهب إليه أيضاً نحن، ونعتبر أن الأوثان هي الأكثر انتشاراً لكونها لا تتطلب جهداً في صناعتها، بل ربما كانت مجرّد أحجار لا شكل لها، وحتى لو أخذت شكلاً معيّناً، فهي لا تشكل ما يشكله الصنم الذي بُذل فيه جهد كبير إن من حيث إخراج شكله أو من حيث المادة التي صنع منها.

وكما الأصنام، لم ترد في القرآن لفظة وثن إلاّ على صيغة الجمع **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾**، **﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾**، **﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾**[6].

أما في الشعر الجاهلي، فقد ورد ذكر الأوثان عند الأعشى بقوله:

وذا النُّصب المنصوب لا تنسكنّه ... ولا تعبُدِ الأوثان والله فاعبدا

(١) الزبيدي، تاج العروس، طبعة مصر، ١٣٠٦ هـ، ج ٨، ص ٣٧١.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) محمد نعمان الجارم، أديان العرب في الجاهلية، طبعة مصر، ١٩٢٣، ص ١٣٢.

(٤) هذا رأي المؤرخ نلدكه. مقتبس عن كتاب محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٣٨.

(٥) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٦) سورة الحج، آية ٣٠. وسورة العنكبوت، آية ١٧، ٢٥.

٣ ـ النُّصُب:

قال الفرّاء: كأنّ النصب الآلهة التي كانت تعبد من أحجار[١].

أمّا إبن الكلبي فيذكر في كتاب الأصنام، أن من لم يقدر على صنم، ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره، ثم طاف به وسمّوها الأنصاب[٢].

والأنصاب حجارة كانت حول الكعبة، تُنصَب فيهلُّ عليها، ويذبح لغير الله[٣]. وكانوا يذبحون الغنم عند أنصابهم وأصنامهم، ويسمّون الذبائح العتائر، والمذبح العِتْرَ، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

فـزلَّ عنهـا وأوفـى رأس مَـرْمَبَـة   كمنصب العتر دمّى رأسه النُّسُكُ[٤]

وقد وردت كثيراً لفظة أنصاب في الشعر الجاهلي منها:

ما قاله عمرو بن جابر الحارثي:

حَلَفَـت غُطَيْـف لا تُنَهْنِـه سِـرْبَهـا   وحلَفْتُ بالأنصاب أن لا يُرعِدوا[٥]

ويقول أحد بني ضمرة:

وحلَفْتُ بالأنصاب والستر[٦]

أمّا المثقِّب العبدي فيقول في الطواف حول الأنصاب:

يُطيـفُ بنُصْبهِـم حجـنٌ صغـارٌ   فقـد كـادت حـواجبهـم تشيـبُ[٧]

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١، ص ٧٥٩.
(٢) الكلبي، الأصنام، ص ٣٣.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١، ص ٧٥٩.
(٤) الكلبي، الأصنام، ص ٣٤.
(٥ ـ ٦ ـ ٧) نفس المرجع، نفس الصفحة.

أمّا النابغة الذبياني فقد ورد عنده:

فـلا تَعْمـرَ الـذي مسّحـت كَعبتـه   وما هُريق على الأنصاب من جسد[1]

وفي القرآن ورد ذكر الأنصاب والنصب في ثلاثة آيات، بقوله تعالى: **﴿وما ذبح على النصب﴾** و **﴿كأنّهم إلى نصب يوفضون﴾**[3] و **﴿إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ﴾**[4] وقد ورد ذكر الأنصاب على لسان الرسول قبل نزول الوحي عليه، فقيل أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل «بلدح»، فقدّم زيد للرسول سفرة فيها لحم، فأبى أن يأكل منها ثم قال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلاّ مما ذكر اسم الله عليه[5].

ب ـ انتشار الأصنام والأوثان والأنصاب عند العرب:

لا شك أن عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب كانت منتشرة بين العرب في الجاهلية. ولا شك أيضاً أنّ اهتمامهم بها كان كبيراً إلى حدّ أنه كان لكل قبيلة صنماً ما تهتم به.

ويقال إن أول من اتخذ الأصنام من بني إسماعيل بن إبراهيم وسمّوا بأسمائهم حين فارقوا دين أبيهم (الحنيفية)، هو هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، اتخذوا «سواعاً»، فكان لهم برهاط من أرض ينبع. وكذلك كلب بن وبرة من قضاعة، الذين اتخذوا «وداً» بدومة الجندل. وكذلك أيضاً «أنعم» من طيء وأهل جرش من مذحج اتخذوا «يغوث» بجرش. وأيضاً خيوان وهم بطن من همدان اتخذوا «يعوق» بأرض همدان من بلاد اليمن، وذو الكلاع من حمير

---

(١) ديوان النابغة ـ ص ٣٥.
(٢) سورة المائدة، آية ٣.
(٣) سورة المعارج، آية ٤٣.
(٤) سورة المائدة، آية ٩٠.
(٥) صحيح البخاري، طبعة مصر، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٨ هجرية، ج ٧، ص ١٦٥.

اتخذوا «نسراً» بأرض حمير[1].

وهكذا بعد تفرق أبناء إسماعيل ووقوع الحروب والعداوات بينهم، أخرج بعضهم بعضاً فتاهوا في شبه الجزيرة العربية لالتماس العيش. ويذكر ابن الكلبي أن السبب الذي ساقهم إلى عبادة الأوثان والحجارة، أنه كلما ظعن من مكة ظاعن احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً لمكة وللبيت الذي هو فيها. وحيثما حلّوا وضعوا هذا الحجر وطافوا حوله تيمناً بالكعبة. ثم تباعدوا أكثر، فعبدوا ما أحبوا من الأوثان، ومالوا عن دين أبيهم.

أما ابن هشام فيقول في السيرة، أنّ عمرو بن لحي استقدم الصنم «هُبَل» من مآب من أرض البلقاء إلى مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[2].

وكذلك يرد ابن الكلبي إلى عمرو هذا ابتداء عبادة الأصنام، فنصب الأوثان. . .

«وسأل أهل البلقاء، وكانوا يعبدون الأصنام، أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة»[3]. وهذا الكلام يعني أنّ هناك من كان يعبد الأصنام قبل عمرو بن لحي في شمالي الجزيرة العربية حيث البلقاء، وأنه ليس هو من فعل ذلك، بل ربما أنه ممكن أن يكون من أوائل الذين أدخلوها إلى داخل شبه الجزيرة العربية (مكة وبلاد الحجاز) مع الأخذ بعين الاعتبار أن تقديس الأحجار (منذ أن وضع إبراهيم الحجر الأسود في زاوية الكعبة) كان معروفاً من قبل.

أما المسعودي فيروي في مروج الذهب ويقول: لمّا وُلِّيتْ خزاعة أمر البيت (الكعبة) وتولاهم عمرو بن لحي، غيّر دين إبراهيم، وبعث العرب على عبادة التماثيل، التي قدم بها من بلاد الشام. ولمّا أكثر عمرو بن لحي من نصب

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٨. وأيضاً ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١ ـ ٢) ص ٧٧.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٨.

الأصنام حول الكعبة ودعا العرب إلى عبادتها، قال شحنة بن خلف الجرهمي:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا[1]

والحقيقة أن التحقيقات التاريخية لم تثبت حتى الآن إلى من يعود إدخال هذه المعتقدات والعبادات، وإن كان هناك تركيز ما على شخصية عمرو بن لحي. بيد أن المسألة برأينا تعود إلى أبعد من ذلك الشخص في الزمان وربما تكون قد بدأت بجو عام عرفه العرب القدامى عن طريق احتكاكهم بغيرهم من الشعوب القديمة والتي ربما كان لديها من المعتقدات ما ينبىء عن ترميز معنى لها عبر التشخيص والتمثيل، ومن هنا نشأت التماثيل والأصنام والأوثان.

وربما أيضاً تكون هذه العبادات قد تأتت عن بعض مظاهر الطبيعة، وعظمة هذه المظاهر وما تمثله، مثل السماء وما فيها من نجوم وكواكب، والأرض وما عليها من جبال وأنهار ووديان وحيوان ونبات. فربما حرص العرب على تعظيم هذه الأمور نظراً لغرابتها في أذهانهم، فأقاموا لها التشخيصات المناسبة وقدّسوها وعبدوها وطافوا حولها.

ولقد اقتنى العرب في بيوتهم أصناماً صغيرة يعبدونها، كما كان عندهم أصناماً كبرى يقرّون بربوبيتها، وأصناماً أخرى أقل أهمية كانت تخص كل قبيلة على حدة. فالوثنية عند العرب أصبحت مع التاريخ ديانة الأجداد والآباء ودخلت في التراث والتقاليد، فدافعوا عنها دفاع المستميت عن وجوده.

ولقد كانت الكعبة وهي محج العرب جميعاً، مصدر رزق لأهل مكّة، يزورها العرب من كل حدب وصوب، لأجل ذلك نصبت حولها الأصنام والأوثان تبركاً وتيمناً وليرى «الحاج معبوده عندما يحج فيتبرك ويرضى ويقدم القرابين»[2]. كل ذلك لأجل التماس التبرك والزيادة في الأموال[3].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥، ج ٢، ص ٢٩.
(٢) الخربوطلي، تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٦، ص ٣٦.
(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٣، ص ٩٣.

ج ـ عدد آلهة العرب:

هل يمكننا حصر وتعداد الآلهة عند العرب؟ وهل يعني أنَّ كل صنم أو وثن أو نصب هو إله، أم هو مجرّد تشخيص متعدد لإله واحد يعبدونه، أو لعدد من الآلهة يعبدونها؟ وما هي أهمية الآلهة عندهم؟ ومن هو أهمَّها، أو من هم أهمَّها؟

لا شك أنَّ هناك الكثير من الأصنام والأوثان والأنصاب، ولكن حصر عددها غير ممكن ولا هو وارد التنويه عنه في كتب الأخباريين العرب. فبعضهم كان يعتبر أن عدد الآلهة مواز لعدد الأصنام والأوثان والأنصاب التي عرفها العرب. وفي ذلك يقول محمد الجارم، «أنه كان لكل قبيلة أكثر من صنم، وكان منها عند الكعبة كثير... وليس في الاستطاعة حصر أصنامهم في الجاهلية فكثرتها تتجاوز العد»[١]. هذا الكلام ينبىء عن أنه إذا تناولنا سير الأولين وما كتب فيها لوجدنا تعداداً كبيراً يفوق الحصر، لأصنام العرب. بيد أن هذا الكلام يبدو أنه من باب السرد الأخباري وليس التحقيق العلمي. فلا يبدو أنه علينا أن نأخذ القول بأن كل إعرابي كان له صنمه أو وثنه أو نصبه، واعتبار ذلك بمثابة الإله المتفرد. فكثيرون من الأعراب هم الذين صنعوا آلهتهم من التمر حتى إذا جاعوا أكلوها. فالحقيقة أن كثرة الأنصاب والأوثان والأصنام لا تنم عن كثرة الآلهة وحصرها بعدد تشخيصاتها، بل ربما كان هناك عدداً محدداً من الآلهة، وكثرة من التشخيصات التي تعود إليها.

ويذهب إلى قريب من ذلك الأب شيخو، فلا يرى هذه الكثرة مطلقاً، فهو يعتبر أن أصنام العرب كما وردت أسماؤها في كتب المؤرخين كأليعقوبي، وفي كتب السيرة والمعاجم والتواريخ والشروح، فإنه لن يبلغ بك العد إلى نحو ثلاثين صنماً. وهو يقارن ذلك مع ما ورد عند ابن إسحاق وابن هشام، من أنه كان في الكعبة ٣٦٠ صنماً، على عدد أيام السنة[٢].

---

(١) محمد نعمان الجارم، أديان العرب في الجاهلية، ص ١٥٥.

(٢) الأب شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ٦.

بيد أن المستشرق «نلدكه» يعتبر أنّ هناك قائمة طويلة من المؤلهات[1]، وكذلك الأب لامنس[2] يقول: «ولم يكن هذا العدد بالقليل».

يقول ابن الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك[3].

يقول بعضهم: «كنا في الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادي: يا أهل الرحال إن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً، قال: فخرجنا كل صعب وذلول، فبينا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادي: إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه، وإذا حجر فنحرنا عليه الجزور[4].

وعن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثيثة من التراب وجئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا بها»[5].

وهناك روايات تفيد أنه «كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً»[6]. وكذلك ابن هشام كان يرى أن أشراف القوم كانوا يتخذون في دورهم أصناماً آلهة يعظمونها ويطهرونها.

بعد كل ما قدمناه حول انتشار الأصنام، وحول الجدل في كثرتها أو قلتها، لا يسعنا إلاّ أن نخرج بالاستنتاجات التالية:

---

(١) محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٤٠.
(٢) مجلة المشرق، دار المشرق، بيروت، العدد ٣٧، ص ٢٢٣.
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٣.
(٤) مقتبس عن محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٤١.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، طبعة مصر، ١٣٤٨ هـ.
(٦) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٣.

١ ـ لا شك بأن هناك انتشاراً واسعاً للمشخصات (أصنام ـ أوثان ـ أنصاب).

٢ ـ إن هذه الكثرة تؤيدها الروايات المتعددة، ويؤيدها أيضاً واقع الحال الذي كان قائماً أنذاك.

٣ ـ إن كثرة التشخيصات لا تعني بالضرورة كثرة الآلهة، فقد تكون المشخصات العديدة مرمِّزة لإله واحد. وأن العرب وإن بدا للبعض أن عبادتهم كانت عبادة فردية بحيث أنّ لكل واحدٍ منهم آلهة، إلاّ أننا لا يمكن أن نأخذ بهذا القول لاعتبارات عديدة منها:

أ ـ لا يعقل أن لا يكون العربي متعلقاً بآلهته وهو الذي استمات في الدفاع عنها عند نزول الإسلام. فالروايات التي تقول «أن الأصنام يطاف بها فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم»[١]، وأنه «لم يكن في قريش رجل بمكة إلاّ وفي بيته صنم»، لا تعني كثرة في الآلهة، بل كثرة في تشخيصاتها.

ب ـ إن العربي كان يتبع قبيلته في عاداتها وتقاليدها وعبادتها. وقلّما سمعنا أنّ للقبيلة الواحدة عدة آلهة. لقد سمّيت بعض القبائل على أسماء آلهتها كما مرّ معنا سابقاً، لذلك فإن كثرة تشخيصاتها لا يعني تعددها هي بالذات.

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٧٨.

الفصل الثالث

أصنام العرب وآلهتهم

كانت أصنام العرب في الجاهلية على أشكال مختلفة، وكانت هذه الأصنام تعتبر آلهتهم المقدّسة، فعبدوها وقدّموا لها القرابين. أما أشهر هذه الأصنام الآلهة فهي: المناة، العزى، اللات، هُبل. والحقيقة أن هذه الأصنام لم تكن تمثيلاً أو تشخيصاً للآلهة بل كانت هي الآلهة بحد ذاتها، لذلك عظّموها واهتموا بها، وجعلوا لها بعض الطقوس التي كانوا يمارسونها حولها. وإن كنا في الفصل السابق اعتبرنا أن بعض الأصنام والأوثان والأنصاب ما هي إلاّ تشخيصات متعددة لآلهة واحدة، إلاّ أنّه مع هذه الأصنام الأربعة السالفة الذكر، اتحد الشكل مع المعنى والرمز وحتى الطقوس. بيد أنّ هذه المؤلهات الأربعة وهي الأشهر، ليست هي الوحيدة، بل هناك أصنام آلهة متعددة، منها ما ينسب إلى الأماكن الطبيعية ومنها ما ينسب إلى الحيوان، ومنها ما ينسب إلى أشياء أخرى كل هذا سنعالجه في هذا الفصل.

١ ـ الصنم الآلهة: مناة:

هو أقدم أصنام العرب كلها على حد قول ابن الكلبي، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقُدَيْد بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله، ومنها الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما حولهما وكل العرب[1].

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٣.

وكان الأوس والخزرج يحجون إليه ولا يحلقون رؤوسهم إلاّ عنده، وفي تعظيمهم له يقول عبد العزي بن وديعة المزني:

إنّي حَلَفْتُ يمين صدق برَّة   بمناة عند محل آل الخزرج[1]

وكذلك عظمته قريش وخزاعة وهذيل وجميع العرب من الأزد والغساسنة.

ويبدو أنّ الصنم «مناة» كان صخرة لأجل ذلك أنّثوه وإليه أضيف زيد مناة، وعبد مناة، وأوس مناة.

ويبدو أن الغساسنة كانوا يعظمون هذا الصنم، وقد أهداه أحد ملوكهم الحارث بن أبي شمّر، سيفان، أحدهما يُسمّى مخذّماً والآخر رسوبا، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره:

مظاهر سربالي حديد عليهما   عقيلاً سيوف: مخذم ورسوب[1]

وفي مناة قال الكميت بن زيد بن مدركة:

وقد آلت قبائل لا تولي   مناة ظهورها متحرفينا[2]

وفي القرآن ورد ذكر «مناة» **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾**[3].

ولفظة «مناة» مشتقة من المنا والمنيّة وهو الموت أو القدر، ومن المنيّة المنون ومنها منى، وهو موضع في مكة كان يمنى فيه أي يراق الدم فيه. وكانت مناة من آلهة الموت والقدر عند البابليين وتعرف باسم «مامناتو». وكذلك كانت من الأصنام المعروفة عند النبط، وقد ورد اسمها في أقدم النقوش النبطية[4].

---

(١) نفس المصدر، ص ١٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٨٥.

(٣) سورة النجم ٥٣، آية ١٦.

(٤) الدكتور السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤١٩.

ويعتبر ياقوت الحموي، أنّ اسم «مناة» لعله يكون «المنا» وهو القدر في قولهم:

ولا تقـولـنّ لشـيء سـوف أفعلـه حتى تبيّـن مـا يمنـي لـك المـانـي

ومعنى ذلك أي ما يقدِرُ عليك.

ويبدو الأرجح أن «مناة» مثلّت الموت وليس القدر عند العرب، لأن القَدَر في تصورهم رجل لا امرأة، فذكَر لا مؤنث. ومما يفسر ذلك هو استقسام العرب عند «هُبَل» و «ذي الخلصة» بالأزلام، وحلفهم فقط أمام «مناة»[1].

ويعقد الدكتور محمود الحوت مقارنة بين اشتقاقات لفظة «مناة»، ويعتبر أنّ هناك شبهاً بين «مناة العربية وبين الكلمتين مناتا الأرامية ومنوت العبرية. وهو كالشبه بين الماني في البيت الذي سرده ياقوت وماني إله القدر أو إله الموت، وهو أغلب الظن معبود كنعاني... وفي اللغة نجد أن منية تعني الموت أو الأجل»[2].

وما نذهب إليه نحن من خلال هذه الروايات، هو أن الأرجح اعتبار «المناة» إله الموت لا إله القدر. فمسألة الأقدار لا نظن أنها كانت مطروحة على هذا المستوى وأن مسألة الموت كانت مسألة معاشة ومرهوبة الجانب، فلا عجب إن أفرد لها العرب إلهاً خاصاً، يتوسلون إليه ويعبدونه ويقدِّمون له القرابين ويهابون جانبه.

ويبدو أن عبادة مناة كانت منتشرة بين معظم قبائل العرب وربما كانت لها رموز مختلفة، ويدعم ذلك انتشار الأسماء المركبة منها عند العرب كما ذكرنا سابقاً (عبد مناة، زيد مناة، أوس مناة). ويبدو أن تأنيث هذا الصنم، أدى إلى اعتباره إحدى بنات الله[3].

---

(١) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٢) محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص ٦٥.

(٣) نفس المرجع، نفس الصفحة.

٢ ـ الصنم الآلهة: اللات:

اللات آلهة عربية قديمة لكنها أحدث في الزمان من «مناة». وقد ترجع إلى عهد الحجر وبطرا، كما أنها ذكرت في نقوش الأنباط والتدمريين. واللات الآلهة الأنثى إسم يمثل فصل الصيف عند البابليين (اللاتو) وكان النبط أيضاً يعتبرونها إله الشمس[١]، أما العرب فنسبوا إليها فصل الصيف[٢] ويقال إن «اللات» من الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي على العرب، أخذها من النبط وكانت صخرة مربعة بيضاء، كما كانت كذلك عند النبط[٣].

وقياساً على الأخبار التي تعتبر أن اللات كان صخرة وليس تشخيصاً مشكّلاً، لا يستبعد الدكتور جواد علي، أن يكون هذا الصنم، نصباً من الأنصاب التي كانت تستخدم لتقديم الذبائح والقرابين. وبذلك اختلط أمرها مع مرور الزمن على الناس، فتوهموا أن هذا النصب هو الصنم نفسه.

كما أنه لا يستبعد أن تكون «اللات» من بقايا الوثنية البدائية التي تعبد فيها الأحجار حتى ولو كانت مجرّد صخر، لا شكل لها. وفي هذه الحالة تدخل عبادتها في المذهب الفيتشي[٤]. لأجل ذلك أشار ياقوت إلى أنه كان في صخرة اللات والعزى شيطانان يكلمان الناس[٥].

يبدو إذن أن «اللات» غريبة عن العرب، وهم أخذوها من الشمال وأدخلوها إلى داخل شبه الجزيرة العربية، ويبدو أنها في الأساس آلهة نبطية.

ومما ذكره الأب لويس شيخو عن اللات قوله: إن اللات هي الزهرة ولنا

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٧٤.

(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤١٩.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٦.

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٩٢.
الفيتشية اعتقاد بوجود شيطان أو روح ميت حلاّ في تشخيص ما، وهي عقيدة تؤدي إلى عبادة الروح في الأشياء.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤.

على ذلك شهادة هيرودوتس المؤرخ الذي اعتبر أن العرب يعبدون الزهرة السماوية وهم يدعونها «اليتّا»، وقد أصلح إسمها في محل آخر فدعاها الألات، وهو اختصار الألاهت، كما اختصروا الاسم الكريم الإله فقالوا الله. ثم اختصروا الالات فقالوا اللات. وكانت اللات معبودة في كثير من جهات الجزيرة، وليس الطائف كما زعم كتبة العرب. فإن الأثريين وجدوا كتابات عديدة ورد فيها ذكر اللات ولا سيما في بلاد النبط في حجر وصلخد والبصري حيث كان لها هيكل وفي أنحاء حوران وحتى في تدمر. وتدعى هناك بألقاب تدل على مقامها كاللات العظمى وأم الآلهة. وكانوا يضيفون إلى اسمها اسم المكان الذي تكرم فيه، فيقولون لات صلخد ولات حبران... ومما يدل على انتشار عبادتها بين العرب كثرة الأسماء المركبة من اسمها، كوهب اللات، وتيم اللات، وعمرو اللات، وزيد اللات وغيرها»[١].

والأب شيخو يعتبر أن اللات ومناة، اسمان من أسماء «العزى» وهي الزهرة التي سُمّيت بأسماء مختلفة حسب مقتضيات ظهورها بعد غروب الشمس وقبل طلوعها. لكننا لا نذهب إلى ما ذهب إليه الأب شيخو، بدليل أن القرآن أورد أسماء هذه الأصنام منفصلة بعضها عن بعض، وأن الأخباريين العرب والمسلمين فصلوا بينهما وتعاملوا معهما على أساس أنهما صنمان مختلفان والهتان متمايزتان.

وقد ورد اسم اللات في القرآن ﴿**أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى**﴾[٢] وهي أيضاً وردت في أشعار الجاهليين، تارة بصيغة القَسَم كما يقول المتلمس:

أطْـرَدْتَنـي حَـذَر الهجـاء ولا والـلات والأنصـاب لا تئـلُ[٣]

---

(١) الأب لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ١٠.
(٢) سورة النجم ٥٣، آية ٢٠.
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٦.

أو كما يقول أوس بن حجر:

وبـالـلات والعُـزّى ومـن دان دينهـا وبـــالله، إن الله منهـــنّ أكبـــر

وبقيت اللات ربة «ثقيف» حتى دخلوا في الإسلام. ويروى عن هدمها، أن ثقيف ما كانوا يرون أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة. فلما أرسل الرسول المغيرة بن شعبة لهدمها، وأخذ المعول وقال لأصحابه لأضحكنكم من ثقيف، وضرب بالمعول ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا، وقالوا أبعد الله المغيرة، قتلته الربة. ثم قالوا هازئين لأصحابه من شاء فليقترب، فقام عندئذ المغيرة وقال: والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره، وعلا سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوّوها بالأرض. غير أن سادنها لم ييأس من انتقام الربة، وجعل يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم! فلمّا سمع المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفروه حتى أخرجوا ترابها. ثم رجعوا إلى رسول الله فقسم أموالها بين المسلمين[٢].

ومع هدم اللات، بقيت ثقيف على ولائها لها، فنهاهم شداد بن عارض الجشمي بقوله:

لا تَنْصُـروا الـلاتَ إنّ الله مُهلِكهـا وكيف نَصَركم من ليس يَنْتصِرُ[٣]

وهناك أسطورة رواها الأخباريون عن هذا الصنم، جاء فيها: إن عمرو بن لحي الخزاعي، حين تغلبت قبيلته «خزاعة» على قبيلة جرهم، وأجلتها عن مكة، استولت على الكعبة، وجعلت عمرو بن لحي رباً لا يبتدع لهم بدعة إلاّ اتخذوها شريعة. وكان اللات وهو رجل من ثُقيف يلت له السويق للحج على صخرة تسمّى صخرة اللات. فلما مات اللات أشاع عمرو بن لحي أنه لم يمت

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٥، ص ٣٣.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٧.

وإنما دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بنياناً يُسمّى اللات[1]. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى. وذكر ياقوت نقلاً عن ابن حبيب أن اللات كان بيتاً لثقيف بالطائف على صخرة «وكانوا يسيرون إلى ذلك البيت ويضاهئون به الكعبة وله حجبة وكسوة وكانوا يحرمون واديه»[2].

ويبدو أن رواية ياقوت عن عمرو بن لحي تخالف بعض الروايات التي ذكرناها سابقاً والتي تفيد بأن عمرو بن لحي قد يكون أتى بالصنم «اللات» من عرب الشمال.

٣ ـ الصنم الآلهة: العزّى:

«العزّى» هي صنم أنثى، ورد ذكرها في القرآن مع مناة واللات، ﴿**أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى**﴾[3]. وهي أحدث زمانياً من مناة واللات، لأن العرب تكنّت بهما قبل العزّى، فقالوا: عبد العزّى[4]، وقد أقسموا بها. يقول درهم بن زيد الأوسي:

إنّـــي ورب العُـــزَى السعيـــدة والله الـــذي دون بيتـــه سَـــرِفُ[5]

ومن حديث ذكره أبو الفرج الأصفهاني، يحلف فيه المنذر الرابع ملك الحيرة باللات والعزّى، نعرف أنها كانت تُعْبَد عند اللخميين في الحيرة. وقيل أن المنذر الرابع قد ضحّى للعزّى ابن الحارث الجفني ملك غسّان والذي كان قد وقع أسيراً في يده، كما قيل أنه ضحّى أربعمائة راهبة أسيرة كنّ متنسكات في

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤.
(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٣) سورة النجم، آية ٢٠.
(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٦.
(٥) نفس المصدر، نفس الصفحة.

بعض أديرة العراق[1]. ويبدو أن القساوة قد لازمت عبادة هذا الصنم. والعرب إن تحدثنا عنها قالت: «والعزّى تأنيث الأعز، مثل الكبرى تأنيث الأكبر. والأعز بمعنى العزيز، والعزى بمعنى العزيزة، وهي أحدث من اللات ومناة[2].

وكانت العزّى بواد من نخلة الشآمية بواد يُقال له حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال. وكانت أعظم الأصنام عند قريش التي حمت لها شعباً من وادي جراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة[3]. ونخلة الشآمية هذه كانت واديين لهذيل على ليلتين من مكة، وهما ما عناهما كثيِّر بقوله:

حلفت برب الموضعين عشية[4]

وكانت العزى تعبد بثلاث شجرات سمرات بنخلة حيث كان يشتّي الرب لحر تهامة بعد أن يكون قد اصطاف في اللات لبرد الطائف. ولم تقتصر عبادتها تمثيلها بالثلاث سمرات، ولكن كان لها صنم أيضاً معبود وبيت محمي تقدم له ضروب الشعائر[5].

وبعضهم يعتبر أن كلمة عزّى من لغة بني طيء، سمّوها عوزي، وهي نفس عشتار ابنة الإله سين عند البابليين، وهي أيضاً نفس كوكب الزهرة المعروف عند عرب الجنوب بعثتر[6]. وكما كانت عشتار تمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية، ثم مثلت الخصب والحب والجمال وأصبحت بنت الإله، ثم أصبحت الزهرة عند الإغريق، كانت العزى رمزاً للشتاء في قول

(١) محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٧٠.
(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ج ٣، ص ٦٦٥.
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٧.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٦٩.
(٥) تفسير الطبري، ج ٢٧، ص ٣١ ـ ٣٢، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٧١.
(٦) محمد خان، الأساطير العربية في الإسلام، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٢٠.

عمرو بن لحي لعمرو بن ربيعة والحارث بن كعب، إنّ ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ويستوي بالعزى لحر تهامة[1]. ثم أصبحت العزى عند العرب آلهة الخضر، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء وعرفت بالزهرة. وكما كانت عشتار آلهة الحب والعشق الجسدي، كان للعزى عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج فكانت الفتاة إذا طلبت الزواج نشرت جانباً من شعرها، وكحلت إحدى عينيها، وحجلت على إحدى رجليها ليلاً، وقالت عبارة معناها أنها تدعو أن تتزوج قبل الصباح، أي قبل أن يطلع نجم الصباح وهو الزهرة.

وكانت العزى أعظم الآلهة عند قريش وكانوا يزورونها ويتقربون عندها بالذبح، ويهدونها. وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. فإنهنّ الغرانيق العلى. وأن شفاعتهن لترتجى»[3].

ولم تكن العزى آلهة قريش فقط، بل كانت صنماً لكثير من قبائل العرب مثل غنى وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان[4]، وكان سدنتها من بني صرمة بن مرة، وذكروا أنها سمرة بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة [5].

والظاهر أن عبادة العزى أخذت تتضاءل في أواخر العصر الجاهلي، وإن كان بعضهم كان لا يزال شديد التعلق بها. وفي ذلك أن سعيد ابن العاص حينما مرض مرضه الأخير الذي مات فيه، دخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي فقال ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت نبكي ولا بد منه؟ قال لا، ولكني أخاف أن لا تعبد العزى بعدي! فقال أبو لهب: والله ما عبدت في حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدها لموتك. فقال أبو أحيحة: الآن علمت أن لي خليفة[6].

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، ص ٧٤.
(٢) محمد خان، الأساطير العربية، ص ١٢٢.
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٩.
(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٩٧.
(٥) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٦.
(٦) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٣.

أمّا نهاية هذا الصنم فكانت على يد خالد بن الوليد والذي أمره رسول الله بمسح معالم العزّى، فضربها وفلق رأسها وقتل سادنها.

٤ ـ الصنم الآلهة: هبل:

أما «هبل» فهو أعظم أصنام قريش. ويرجح بعض الباحثين في ديانات العرب الجاهليين أن يكون هبل هو نفسه الإله «بعل» عند العبرانيين. ويُعتقد أنه هو الإله «مردوك» سيد آلهة بابل، ثم دخل «بعل» عند الإسرائيليين وأصبح إله الخصب والزراعة، ويبدو أنه كان أيضاً عند العرب إله الخصب بدليل أن الروايات تذكر أن عمرو بن لحي أتى به من هيت من أرض الجزيرة(١)، ونصبه على بئر في بطن الكعبة تدعى الأخشف. ودلالة ذلك أن هناك علاقة بين هذا الصنم وبين الخصب. وبما أن مسألة المياه وخصابة الأرض مسألة مهمة عند العرب، وبما أنهم وضعوا آمالهم في هذا الصنم يرجونه المساعدة على الاستسقاء، فقد أصبح هبل أعظم آلهتهم وسيِّدها.

ويعتبر اليعقوبي أن هبل أول صنم وضع بمكة، وهو أُحضِر من «مآب» في الشام أو من العراق «هيت»(٢).

أما ياقوت الحموي، فيحاول أن يجد اسمه من الاشتقاقات اللغوية العربية، جاهلاً بأنّ اسمه غريب لا يحتاج إلى تأويل. وهبل هذا هو الذي كان يخاطبه أبو سفيان بن حرب في معركة أحد التي دفعت في العام الثالث للهجرة، بقوله: «أعل هبل! أعل هبل! فيجيبه أصحاب النبي: الله أعلى وأجل»(٤).

ويقول ڤنسنك، أنه يمكننا أن ندعوه «إله مكة والكعبة»(٥).

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، ص ٦٤.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٩٥، طبعة ليدن ـ أبريل ١٨٨٣. مقتبسة عن محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٧٦.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٩٤٩.

(٤) تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٤١٧ ـ ١٤١٨.

(٥) محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٧٧.

وكان لهبل خزانة للقربان، وكان قربانه مائة بعير، فإذا جيء بالقربان، ضربوا القداح وقالوا:

إنا اختلفنا فهب السراحا
ثلاثة يا هبل فصاحا
الميتة والعذرة والنكاحا
والمرء في المرضى والصحاحا
إن لم تقله فمر القداحا[1].

وذكر اسم «هبل» خارج إطار الروايات العربية، في نقش نبطي ذكره على ما يقال مع ذي الشرى ومناة[2].

أما جرجي زيدان فيعتبر أن هبل من آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين، وله على ذلك عدة أدلة منها:

١ ـ إنّ هذا الصنم قد استقدم من خارج البلاد العربية، بعضهم يقول من الشام «مآب» وبعضهم من العراق «هيت» كما مرّ معنا.

٢ ـ إن ياقوت الحموي في معجم البلدان قد أجهد نفسه في إيجاد الاشتقاق اللغوي له ولم يوفق، فهو ليس لفظاً عربياً، وعنده أي زيدان، إنه عبراني أو فينيقي أصله هبعل، وهو اسم أكبر أصنام الفينيقيين أو الكنعانيين.

والظاهر أنه حُمِل إلى قلة باسمه العبراني. ومما يدعم هذا الرأي، هو أن طريقة عبادة العرب لهبل تشبه إلى حد كبير طريقة عبادة المؤابيين هبعل. فقد كان هؤلاء ينصبون الصنم على تلال مرتفعة أو سطوح البيوت ويقدمون له القرابين من الحيوانات والآدميين، ويحرقون له المحرقات، ويستخيرونه

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، ص ٧٤.
(٢) الموسوعة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٢٧. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٧٧.

ويفضلونه على سائر آلهتهم، وكذلك كان يفعل العرب لهبل[1].

أما ابن الكلبي فيذكر أنه كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة، وكان أعظمها عندهم هُبَلُ، وهو مصنوع من عقيق أحمر، ويتخذ صورة إنسان، وكانت يده اليمنى مكسورة، وأدركته قريش بدون يد، فجعلوا له يداً من ذهب[2].

أما ابن إسحق، فلا يختلف كلامه كثيراً عن كلام الكلبي، وكذلك ابن هشام في السيرة حيث يروي قصة جلب هُبل من مآب من أرض البلقاء إلى مكة على يد عمرو بن لحي وتنصيبه فيها وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وعرف هُبَل، بهبل خزيمة لأن أول من نصبه في جوف الكعبة خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، وكذلك قيل عمرو بن لحي. وكان هذا الصنم يستفتى في مشكلات الناس الشخصية كالزواج والولادة والرحلة والعمل، فكانوا يستقسمون عنده بالقداح، فما خرج عملوا به، وانتهوا إليه، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[4].

يبدو مما تقدم في كلامنا عن هذه الأصنام السالفة الذكر، أن معظمها استقدمه العرب من خارج الجزيرة العربية، وخصوصاً من المناطق المجاورة لشمالي شبه الجزيرة العربية. هذه المناطق كانت تسكنها جماعات وشعوب عريقة في حضاراتها من مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية. فلا عجب أن يتأثر العرب بهم وأن يكون عهدهم بهكذا نوع من المعتقدات حديثاً زمانياً لا يعود لأبعد من قرنين قبل الإسلام. بيد أنّ هذا الأمر لا يعني إطلاقاً أنّ العرب لم يكن لهم معتقداتهم الخاصة وطقوسهم التي يمارسونها، بل إن الروايات في هذا الشأن وعلى ضآلتها تُرجع عبادة الأوثان والأصنام على

---

(١) جرجي زيدان، أنساب العرب القدماء، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٢٩، ص ٧١.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٨.
(٣) ابن هشام، السيرة، ص ٧٧.
(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٨.

اختلافها إلى عهد قريب من عهد عاد وثمود وبناء الكعبة على يد إبراهيم وابنه إسماعيل. ولن يقتصر الأمر على هذه الأصنام الأربعة التي ذكرنا، بل هناك الكثير منها عند العرب على اختلاف في الأهمية. هذا ما سنتناوله في الفصل التالي.

الفصل الرابع

أصنام وآلهة أخرى
عند العرب الجاهليين

١ ـ أصنام عمرو بن لحي:

إضافة إلى ما ذكرناه في الفصل السابق عما نُسب إلى عمرو، فإن هناك روايات أخرى تنسب إليه استقدام بعض الأصنام الأخرى. وفي هذا الأمر يمكن أن نسجل روايتين طريفتين:

«كان «ود» و «سواع» و «يغوث» و «يعوق» و «نسر» قوماً صالحين، ماتوا في شهر!... فجزع عليهم ذوو قرابتهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً! قالوا: نعم! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم... على عهد يردى بن مهلايل!! فكان الرجل يأتي أخاه من هذه الأصنام وعمه وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول!.

ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيمهم في القرن الأول!

ثم جاء القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلاّ وهم يرجون إليهم إدريس نبياً، فدعاهم فكذبوه، فرفعه الله إليه.

ولم يزل أمرهم يشتد حتى أدرك نوح، فبعثه الله نبياً، وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة! فدعاهم إلى الله مائة وعشرين عاماً، فعصوه وكذبوه، فأمره الله أن يصنع الفلك، ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة، فعلا

الطوفان وطبق الأرض كلها! وأهبط هذه الأصنام من جبل نوذ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدّه. ثم نضب الماء وبقيت على الشط فسفت عليها الريح حتى وارتها! وكان للكاهن الخزاعي «عمرو بن لحي» رئي من الجن جاءه مرة وقال له: عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة!.

قال: جير... ولا إقامة!

فقال الرئي: إيت ضف «جدّه» تجد فيها أصناماً معدّة. فأوردها تهامة ولا تهب، ثم أدع العرب إلى عبادتها تُجِب!

فأتى شط جدّه فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة. وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة!

وأجابته القبائل كلها، فدفع إلى كلب «وداً» حيث أقر بدومة الجندل، وإلى هذيل «سواعاً». وهي أول من اتخذ الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم فكان لهم برهاط من أرض ينبع. وإلى مذحج وأهل جرش «يغوث» وكان بأكمة في اليمن يقال لها مذحج. وإلى همدان «يعوق» فكان بقرية لهم يقال لها حيوان على ليلتين مما يلي مكة. وإلى حمير «نسراً» فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع.

ولم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبي فأمر بهدمها[1].

أما الأسطورة الثانية فتتلخص بأن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق ـ رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها ونستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا! فقال: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟! فأعطوه صنماً يقال له «هُبَلَ»!

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٩ ـ ١١ ومن ٥١ و ٥٩.

فقدم مكة ونصبه وأمر الناس بتعظيمه وبعبادته. ومنهم من يقول أنه أحضر هُبَل من هيث من أرض الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة[1].

في الأسطورة الأولى محاولة لتقديس الأموات الذين نحب ومن ثمّ محاولة تجسيدهم وترميزهم وتقديم الشعائر والطقوس لهم.

وفي الثانية فيها كشف عن الأصل الذي دخلت منه معظم أصنام العرب، وعن أن الشعوب المجاورة لشبه الجزيرة العربية قد أثرت بشكل أو بآخر على معتقدات العرب وبناهم الذهنية في موقع خصب بالأساطير ومُجدِب بالحقائق.

وهكذا نرى أن أصنام عمرو هي:

أ ـ «ود:

وهو صنم لقبيلة كلب بدومة الجندل، وكان لبني وبرة[2]. وكان عمرو قد دفعه إلى عوف بن عذرة بن كاسب بن قضاعة، فأقامه بدومة الجندل، وسمّى ابنه عبد ود، وجعل عامراً ابنه سادناً له. ولم تزل بنوه يسندونه حتى جاء الإسلام وقيَّض عبادته[3]. وكان هذا الصنم على هيئة رجل قد «ذُبر عليه حُلّتان، متزِّر بحلّة، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلَّده وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل»[4].

يقول النابغة في «ود»:

حيّـــاك ودًّا فـــإنـــا لا يحـــلُّ لنـــا   لهو النساء وإن الدين قد عزما[5]

وقد ذُكر في القرآن في خبر نوح: ﴿وقالوا لا تذَرُنّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وداً

---

(١) نفس المصدر، ص ٨.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥. ٣٦٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٦٨. ابن الكلبي، الأصنام، ص ٥٥.

(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٥٦.

(٥) نفس المصدر، ص ١٠.

ولا سَواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾[1].

ويذكر الدكتور جواد علي، أن هذا التمثال كان كبير الشبه بتمثال إيروس اليوناني، دون أن يعني ذلك أنه كان يوناني الأصل[2].

ويذكر ياقوت، أنّ «ود» اسم للقمر كما ورد في النصوص العربية الجنوبية، وكما ورد في النصوص الثمودية وفي النصوص اللحيانية. وكذلك ورد أن قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه «ود».

ب ـ سواع:

كان هذا الصنم يُعبد برهاط من أرض ينبع في أعراض المدينة، وكانت سَدَنَته بنو لحيان[3]. وهذا الصنم كان لهمدان من قوم نوح ثم صار لهذيل كما هو وارد في الأسطورة. وكانوا يحجون إليه برهاط، وهذا يعني أن عبادة هذا الصنم بدأت باكراً زمن نوح حتى بواكير الإسلام على رأي الأزهري[4].

وفي سواع يقول رجل من العرب:

تراهم حول قبلهم عكوفاً ... كما عكفت هُذيْلُ على سواع
تظل جنابه صرعى لديه ... عتائر من ذخائر كل راعِ[5]

ج ـ يغوث:

هذا الصنم عبدته مذحج ومن والاها، بعد أن كان دفعه عمرو بن لحي

---

(1) سورة نوح ٧١، آية ٢٣.
(2) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ١٣٠.
ويذكر ياقوت، أنّ «ود» اسم للقمر كما ورد في النصوص العربية الجنوبية، وكما ورد في النصوص الثمودية وفي النصوص اللحيانية. وكذلك ورد أن قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه «ود».
(3) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٠، وياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٦.
(4) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٨، ص ١٧٠.
(5) ابن الكلبي، أصنام العرب، ص ٥٧.

إلى أحد أبنائها وهو أنعم بن عمرو المرادي والذي كان بأكمة باليمن[1].

وقاتل بنو غطيف بني أنعم لأجل هذا الصنم، فما كان من بني أنعم إلاّ أن هربوا به إلى نجران، حيث احتموا هناك ببني النار، وأقرّوه عندهم من الضباب من بني الحارث بن كعب، فاجتمعوا عليه جميعاً. لكن بني أنعم المراديين طالبوا بهذا الصنم لأنّ دماءهم عليه، والتمسوا بني الحارث أن يردوه. فما كان من بني الحارث إلاّ أن استنجدوا بقبائل همدان، وكانت بين الجميع وقعة الرزم، حيث انهزمت مراراً من بني الحارث، وظلّ يغوث قائماً عندهم[2].

وكان بني أنعم من مراد، قد حملوا معهم في المعارك هذا الصنم، وفي ذلك قيل فيهم:

وسار بنا يغوث إلى مُراد   فناجزناهم قبل الصباح[3]

ويذكر الدكتور جواد علي، أن يغوثاً هذا كان على هيئة حيوان (أسد)، وبه تسمّت بعض الأسماء العربية، من عرب مذحج وهوازن وتغلب، وعرف هؤلاء بعبد يغوث[4].

ويُقال إن يغوث جُلِبَ من مصر، وتعليلهم ذلك هو أنه وجد بين آلهة المصريين صنم على هيئة أسد يسمّونه «تغنوت». والحقيقة أن العرب ما لجأوا أبداً إلى عبادة الحيوانات المائتة، بل فقط عبدوا ما كان حياً منها، ولذلك هم لم ينحتوا أصناماً على هيئة حيوان، وهذا ما يؤكد أن الأصنام التي هي على هيئة حيوان إنما هي مجلوبة من الخارج. وقد تسمت بعض الأسماء العربية بعبد الأسد وبعبد يغوث كما قلنا سابقاً.

---

(١) نفس المصدر، ص ٥٧.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٦٦.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٠.

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٨٦.

د ـ يعوق:

ومن الأصنام التي دفعها عمرو بن لحي كان «يعوق» إلى مالك بن مرثد بن جشم بن خبران من همدان. ولمّا قبلته همدان أقاموه بقرية «خيوان» حيث عبدوه هم ومن والاهم من أرض اليمن[1]. وكان يعوق على شكل فرس، وكان صنماً لجديلة طيء[2]. ولم يُعرف أن همدان تسمّت به، ولا قيل فيه شعراً، وربما كان ذلك بسبب تأثير اليهودية بهمدان نتيجة قربهم من صنعاء واختلاطهم بحمير التي عرفت اليهودية.

هـ ـ نسر:

أيضاً من أصنام عمرو بن لحي، وقد أعطاه إلى رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب. وقد اتخذته حمير معبوداً لها، ووضعته في موضع من أرض سبأ يقال له خلع. وبقي هذا الصنم معبوداً لحمير ومن والاها حتى تهودت هذه القبيلة على يد «ذو نواس»[3]، أحد ملوك المناذرة اللخميين.

وقد ذكر الأخطل هذا الصنم في شعره:

أمـــا ودمـــاء مـــائـــرات تخـــالهـــا   على قنّة العزى وبالنسر عندما[4]

وفي لسان العرب ورد: إن نسر اسم لصنم، ذكره الشاعر عبد الحق:

أمـــا ودمـــاء لا تـــزال كـــأنهـــا   على قُنَّة العُزّى وبالنسر عندما[5]

وكان نسر من أصنام بني إرم، فهو «نشر» في العبرانية، وهو «نشرا» الوارد ذكره في التلمود[6]، وكذلك ورد ذكر نسر عند السبئيين. وقد انتشرت عبادة

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٥٧.
(٢) نفس المصدر، ص ٦٣.
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١١، وص ٥٨.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٨٤.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٥، ص ٢٠٦.
(٦) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٨.

«نسر» في أعالي الحجاز، إذ وجدت هناك أصنام على صورة نسر منحوتة في الصخور[1].

ومع أن هذه الأصنام الخمسة التي أوردناها تنسب إلى عمرو بن لحي فقد عُرِفت أيضاً بأصنام قوم نوح لأنها وردت في القرآن في سورة نوح.

ومن أصنام العرب أيضاً:

٢ ـ أساف ونائلة:

سبق أصنام عمرو بن لحي وما يُنسب إليه من دور في نشر عبادة الأصنام في شبه الجزيرة العربية وخصوصاً في الداخل، ما نُسِب إلى الجراهمة من وجود مجسّمات مؤلهة عندهم. وجرهم هي التي صاهرها إسماعيل بن إبراهيم، والروايات والأخبار تذكر «أن إسافاً هو رجل يقال له إساف بن يعلى، وأن نائلة هي بنت زيد من جرهم أيضاً»[2]، أقبلا حجاجاً، وقد كان أساف يتعشق نائلة في بلاد اليمن. ولما دخلا الكعبة، ووجدا غفلة من الناس، اختليا، «ففجر بهما فمسخا حجرين... ثم أخرجا ليتعظ الناس بهما»[3]. فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام، عُبِدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم. فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر، وكانوا ينحرون عندهما. ولما استقسم عبد المطلب بالقداح عند هُبَل على ولده عبد الله، وخرج القدح عليه، أخذه أبوه بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل إلى أساف ونائلة ليذبحه[4].

وقد عبدت هذين الصنمين بعض قبائل العرب من خزاعة ومن حج البيت من العرب[5].

---

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٩.

(٤) علي الخربوطلي، تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٦، ص ٩٩.

(٥) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٩.

وقصة هذين الصنمين تداولها العرب كثيراً فيما بينهم إن كان في الجاهلية أو حتى في الإسلام، وقد سمعت عائشة تقول: «ما زلنا نسمع أن أسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله حجرين»[1].

وورد ذكر أساف ونائلة في قول «أبو طالب» وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر محمد:

أحضرتُ عند البيت رهطي ومعشري وأمسكت من أثوابه بالوصائل
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم بمفض السيول من إساف ونائل[2]

ويقول بشر بن أبي خازم ذاكراً إساف:

عليه الطير ما يدنون منه مقامات العوارك من إساف[3]

وهناك روايات أخرى عن مصدر هذين الصنمين، تذهب خلاف ما ذهب إليه ابن الكلبي، وهي أنَّه: «إنهما صنمان. . . حملهما عمرو بن لحي أيضاً من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة، ثم وضع أحدهما على الصفا والآخر على المروة. فربما كانا هذان وهبل مثلثاً وثنياً، ومثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين في الأزمنة القديمة. والغالب في هذه المثلثات أن يكون كل منهما مؤلفاً من رجل وامرأة وغلام. وأمثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم»[4].

وفي رواية الأزرقي، أن رجلاً يقال له أجأ بن عبد الحي عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى، وكان لها حاضنة يقال لها العوجاء يجتمعان في منزلها، ولما شعروا بهم فروا فتبعوهم وقتلوا سلمى على الجبل المسمّى باسمها، وأجأ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (١ ـ ٢) ص ٨٣.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٩.
(٣) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٤) جرجي زيدان، أنساب العرب القدماء، ص ٤٠.

على الجبل المسمّى باسمه، والعوجاء على هضبة بين الجبلين فسمي المكان بها»[1].

٣ ـ غزالا مكة:

هما صنمان على هيئة غزالين. وفي الرواية عنهما، «أنّ عمرو بن الحارث الجرهمي وبعد أن نفت خزاعة جرهماً عن مكة خرج بغزالي الكعبة، وكانا من ذهب، وحفر في ليلة مظلمة هو وولده في موضع زمزم الذي كان قد نضب ماؤه. ثم دفن الغزالين مع ما دفن»[2]. إلى أن كان من أمر عبد المطلب حيث وجدهما وهو يحفر زمزم، فأعادهما إلى الكعبة بعد الضرب بالقداح عليهما أمام هُبَل. «وكان هذان الغزالان أول حلية ذهب وضعت بالكعبة»[3].

٤ ـ أصنام نوح:

وهي نفسها تقريباً التي نُسِبت إلى عمرو بن لحي: ود، يغوث، يعوق، سواع، ونسر. ويذكرون من أصنام نوح أيضاً:

أ ـ اليعبوب:

كان صنماً لجديلة طيء، عبدته بعد أن سلبتها بنو أسد صنمهم الأول وبذلك يقول عبيد بن الأبرص:

وتبدلوا اليعبوب بعد آلههم صنماً، فَقِرّوا يا جديل وأعذبوا

وابن الكلبي يعلّق على ذلك بالقول، إنّ هذا الصنم ربما كان على هيئة فرس، لأن اليعبوب في اللغة الفرس السريع الطويل، أو الجواد السهل في عدوه[4].

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٧٥.
(٢) نفس المصدر، ص ٩٢.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (١ ـ ٢) ص ١٤٦.
(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٦٣.

٥ ـ عُمْيَانُس:

يُنسَب هذا الصنم إلى بطن من خولان يُقال لهم الأديم، وفيهم قال القرآن: **﴿وجعلوا للّه ممّا ذرأ من الحرْث والأنعام نصيباً فقالوا هذا للّه بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان للّه فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾**[١].

ومن الروايات أيضاً أن وفد خولان قدم على الرسول في شعبان سنة عشر، إذ قال الرسول لهم: «ما فعل عم، أنس» فقالوا: بشرّ وعرّ، أبدلنا الله به، ولو قد رجعنا إليه هدمناه»[٢].

وموضع هذا الصنم هو خولان، وكان أهلها يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينهم وبين الله بزعمهم، ودائماً هو الرابح في هذه القسمة[٣].

وفي كتاب الأصنام في الهامش، يذكر محقق الكتاب، أنّ في هامش نسخة «الخزانة الزكية» عبارة هذا نصّها: «عمُّ إنس» وبعدها هذا الشعر:

أضلهـــم صنمهـــم عـــمُّ إنـــس   كانوا إذا ما ألغيت عنهم احتبس[٤]
تـــوسلـــوا إليـــه بـــالـــذبـــائـــح   أن يمطـــروا، وأعظـــم القبـــائـــح

٦ ـ رضى:

وهو من الأصنام المعروفة عند الثموديين، انتشرت عبادته بين عرب الشمال فورد في نصوص تدمر وفي الكتابات الصفوية على هذا الشكل «رضو»[٥].

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٣٦.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٦٥. وهو مقتبس عن نهاية الإرب (١٨، ٨٢).
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ٤٣.
(٤) نفس المصدر، نفس الصفحة ولكن في الهامش.
(٥) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ١٠٥.

وربما كانت عبادة هذا الصنم سائدة في بني تميم، ودليلنا على ذلك هذا البيت من الشعر لبني ربيعة من تميم:

ولقد شددتُ على رضاء شدّة فتركتها تلاًّ تنازع أسْحَما[1]

والواضح من هذا البيت من الشعر أن هذا الصنم هو آلهة أنثى بدليل ضمير التأنيث.

٧ ـ مناف:

تسمّت بهذا الصنم الآلهة بعض العرب، فقيل عبد مناف وخاصة أبناء قريش. وصاحب الأصنام لا يجد له موضعاً نُصِب فيه ولا يعرف أين كان ولا من أتى به. وفي هذا الصنم يقول بلعاء بن قيس:

وقرن قد تركت الطير منه كمعتنر العوارك من مناف[2]

ويبدو أنه كان معبوداً بين عرب الشام، وقد عثر على اسمه في كتابة دوّنها شخص اسمه (أبو معن) على حجر، توجه به إلى الإله مناف، ليمنَّ عليه بالسعد والبركة، كما حفرت على الحجر صورة الإله (مناف) على هيئة رجل، كما عُثِرَ في حوران على كتابة ورد فيها اسم مناف مع إله آخر[3].

٨ ـ سعد:

هذا الصنم كان بساحل جدّة، وهو صخرة طويلة، يتعبّد بها مالك وملكان، إبنا كنانة[4]. وذات يوم جاء رجل من كنانة ومعه أيِّل حاول إيقافها على الصخرة للتبرّك والتقرّب. فما كان من الأيِّل إلاّ أن نفرت وهربت، عندما اقتربت منه، نظراً لتلطخه بالدماء التي كانت تراق عليه. فما كان من هذا الرجل

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٢.
(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ح ٦، ص ٢٧٠.
(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٦.

إلاّ أن تناول حجراً ورماه به وقال: لا بارك الله فيك إلهاً، أنفرت عليَّ إبلي، وأنشد:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلاّ صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لِغيٍّ ولا رُشْدِ[1]

٩ ـ الأقيصر:

هذا الصنم كان في مشارف الشام، وهو لبني قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان. وقد جاء في لسان العرب: إنه صنم يعبد في الجاهلية. وقد أنشد ابن الإعرابي قائلاً:

وأنصاب الأقيصر حين أضحت تسيل على مناكبها الدماء[2]

وفيه يقول زهير بن أبي سلمى:

حلَفْتُ بأنصاب الأقيصر جاهداً وما سُحِقت فيه المقاديم والقمْلُ[3]

ويقول ربيع بن ضبع الفزاري في وصف التسبيح والتهليل:

فإنني والذي نغم الأنام له حول الأقيصر، تسبيح وتهليل[4]

وكانت العرب تحج إليه وتحلق رؤوسها عنده، وكانوا يُلقون مع كل شعرة قرّة من دقيق. وكانوا أيضاً يقدمون الأضاحي عند أنصاب هذا الصنم تقرباً وتبرّكاً.

١٠ ـ نُهْم:

هذا الصنم هو لِمُزَيْنة، وسادنه يُسمّى خزاعيْ بن عبد نهم، وهو من مُزَيْنة

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٥، ص ١٠٤.
(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٨.
(٤) نفس المصدر، ص ٣٩.

بني عدّاء. وقد تسمَّوا به (عبد نُهم)[1] وتقرّبوا وقدّموا الذبائح.

وقد ورد ذكر هذا الصنم في شعر لسادنه الذي سمع بالرسول، فقام إلى الصنم وكسره، وأنشد يقول:

ذهبتُ إلى نُهْم لأذبح عنده عتيره نسك كالذي كنت أفعلُ
فقلت لنفسي حين راجعتُ عقلها أهذا إلهُ أيّكم ليس يعقل[2]

١١ ـ عائم:

هذا الصنم كان لأزد السراة، وكانوا يحلفون به ويعظّمونه ويكرّمونه، كما هو ظاهر من شعر لزيد الخيل الطائي:

تخبّرُ من لاقيت أن قد هزمتُهُم ولم تدر ما سيماهُمُ، لا، وعائمُ

١٢ ـ سُعَيْر:

هذا الصنم كان لعَنَزَه، وكانوا يزورونه ويعظمونه ويقدمون له الذبائح. ويروى أن جعفر بن خلاس الكلابي، عندما مرّ به على ناقته، نفرت الناقة من رؤية العتائر المصرّعة.

١٣ ـ الفلْس:

هذا الصنم لطيء، وهو على هيئة إنسان، أسود اللون، موضعه في وسط جبل أجأ. وقد سَدَن هذا الصنم بنو بولان وآخرهم رجل يقال له: صيفيّ.

ويروى أن عديّاً بن حاتم الطائيّ كان يوماً يذبح عتيرة لهذا الصنم، وشاهد مالك بن كلثوم الذي أوقف ناقة كانت ستذبح عند الصنم. وانتظر عديّ ما سيفعله الإله (فلْس) بمن خفره. ولما مضت الأيام ولم يصب مالكاً أي مكروه، إرتد عن عبادة هذا الصنم وجميع الأصنام، وتنصّر ثم دخل في الإسلام. وبقيت

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٩.

عبادة هذا الصنم قائمة حتى ظهور الإسلام، حين أرسل الرسول عليًا فهدمه وأخذ السيفين اللذين أهداهما الحارث الغسّاني[1].

١٤ ـ الشمْس:

وهو كان لبني تميم من عرب الشمال، وعبدته أيضاً بنو أد كلها[2]. وقد تسمّى الكثير به من تميم وغيرها مثل «عبد شمس» و «عمرو شمس»[3].

١٥ ـ المحرِّق:

هذا الصنم عبدته كل ربيعة، وأيضاً تعبدت له بكر بن وائل، وكان سدنته آل الأسود والعجليون[4].

ولا ندري ما إذا كان لقب ملك المناذرة «امرىء القيس» ٢٨٨ ـ ٣٢٨ م بمحرق العرب أو محرِّق، يعود في ذلك إلى التكني بهذا الصنم. فقد أطلقت صفة محرِّق على بني نصر، فصاروا آل محرِّق، وفيهم يقول الشاعر الأسود بن يعفر:

ماذا أؤمل بعد آل محرِّق ... تركوا منازلهم وبعد إِياد
أرض الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد[5]

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة (يقال إنّ هذين السيفين أهداهما الحارث إلى الصنم «مناة»).
(٢) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، دار المعارف، ط ٤، ص ٤٩٣.
(٣) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٨١.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٦١.
(٥) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢١٨. مقتبس عن عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٢٨.

ويعتبر الدكتور جواد علي أن هذه الصفة لم تطلق على امرىء القيس لأنّه أحرق أعداءه، لكن لهذه الصفة علاقة بصنم يُدعى «محرّق» تعبدت له بعض القبائل مثل بكر بن وائل وربيعة، وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بهذا الصنم هو عبد محرِّق[1].

١٦ ـ الأسحم:

وكان هذا الصنم لأسر، ويستنتج ذلك من خلال بيت شعر للأعشى يقول فيه:

رضيعـي لِبـان ثـدْي أمٍّ تحـالفـا   بـأسحـم داج عـوْضُ لا نتفـرّق[2]

وهناك الكثير من أسماء الأصنام التي أوردها صاحب كتاب الأصنام، وأوردها أيضاً الدكتور جواد علي في كتابه «المفصّل»، ومنها: باجر، تيم، الأشهل، بلج، جريش، جهار، الدار، ذو الرجل، الشارق، الضيزن، صمودا، العبعب، يا ليل، عوض، عوف، الكسفة، منهب، وذريح، الجد، غنم، قزح، قيس، أدال، مرحب، المدان، كثرى، السعيدة، السجة، ورئام، بوانة، والبعيم.

ومن أصنام العرب أيضاً «ذو الكفين» وكان لدوس، ثم لبني منهب بن دوس. وقد أحرق ذو الكفين على يدي الطفيل بن عمرو الدوسي عندما أمره رسول الله بتحريقه، ويستدل من ذلك على أنه كان مصنوعاً من الخشب. ومن أصنام عرب الشمال ذو الشرى، وكان صنماً لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد[3].

---

(١) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٣٢. وأيضاً راجع عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٢٩.

(٢) ملحق كتاب الأصنام، ص ١٠٧. مقتبسة عن كتاب الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٣٢٤.

(٣) راجع كل ما أوردناه في كتاب ابن الكلبي؛ الأصنام، ص ٣٧، وكتاب جواد علي، المفصّل، ج ٥، ص ١٠٩.

ويورد صاحب الأغاني، شعراً لزيد بن عمرو بن نفيل، يذكر فيه رباً آخر هو «عتمْ» إلى جانب آلاف الأرباب، فيقول:

ولا عتمـــا أديـــن وكـــان ربـــاً   لنـا فـي الـدهـر إذ حلمـي صغيـر
أربـــاً واحـــداً أم الغـــارب   أديـــن إذا تقسّمـــت الأمـــور[1]

وهكذا توزعت هذه الأصنام بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وكلها كما هو ظاهر في الحقيقة مأخوذ من الشعوب المجاورة لهم وخصوصاً شمالي الجزيرة العربية. وقد كانت العبادات عند العرب المتحضرين شمالاً أم جنوباً أرقى من تلك العبادات التي كانت موجودة في باطن شبه الجزيرة العربية. وكانت طقوسهم منظمة أكثر، ناهيك عن الاحتفالات التي كانت تقام عند هذه الآلهة الأصنام، إضافة إلى النذورات التي كانت تقدّم خصوصاً عند شفاء مريض، أو العود، من سفر ميمون، أو من غزو منصور مع غلّة وافرة من المغانم. وهكذا أصبحت مقامات الآلهة الأصنام تختزن ثروات هائلة من الأعطيات، إن كانت ذهباً أو حلى أو أملاك شاسعة «وأهراء تختزن فيها الثروة»[2]. وفي خرائب المدينة، عثر المنقبون على حوض للماء، ربما استعمله المتعبدون لهذا الصنم للوضوء أو لغسل مواضع من أجسامهم استعداداً لتطبيق الشعائر والطقوس[3].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٣، ص ١٥ ـ ١٦.
(٢) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ١١٠.
(٣) راجع جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ٢٥٦.

الفصل الخامس

آلهة الأماكن

بالإضافة إلى ما ذكرناه في الفصلين السابقين عن أهم أصنام العرب، تلك التي أخذوها عن غيرهم، وتلك التي ابتدعوها بأنفسهم نتيجة حوادث معيّنة رُمّزت عندهم وأصبحت مقدّسة، لا بد من ذكر بعض الأصنام الآلهة والتي رمزوا بها إلى تقديسهم لبعض الأماكن. وهكذا تكون هذه الأصنام الآلهة من ابتداعهم هم ولم يحملوها من خارج. لكن ربما عادة تقديس الأماكن تكون مستوحاة من شعوب أخرى، لا سيّما ونحن نعرف أنّ هناك شعوباً قدّست الأنهار وبعضها قدّس الجبال والأودية. وربما كان الأمر مجرّد واقع طبيعي لذهنيات وعقليات الشعوب البدائية القديمة، وربما كان أبعد من ذلك، بدليل أن التواصل لم ينقطع بين الشعوب والحضارات، فعرفت الأمم بعضها بعض بطرق متعددة منها الحروب والتجارة وأحياناً حب الاطلاع.

من آلهة الأماكن التي قدّسها العرب، يمكننا ذكر:

١ ـ ذو الشرى:

هذا الإله الصنم، نسبه العرب إلى موضع يقال له «الشرى». وهناك مواضع كثيرة سميت بهذا الإسم، ولا ندري إلى أي موضع ينتسب هذا الصنم. فقد ذكر أنه موضع يقع عند مكة، كما هو ظاهر من شعر مديح الهذلي:

ومن دون ذكراها التي خطرت لنا بشرقيّ نعمان الشّرى فالمعرّف[1]

وذُكِرَ أيضاً أنّه «واد من عرفة على ليلة بين كبكب ونعمان». قال نُصيب:

وهـل مثـل ليـلات لهـن رواجـع إلينـــا وأيّـــام تحـــوّل طيبهـــا
إذا أهلـي وأهـل العـامـريـة جيـرةٌ بحيث التقى رهو الشرى وكثيبها[2]

وربما كان هذا الإله الصنم أقدم عهداً مما نظن، وخصوصاً أقدم عهداً من أولئك الذين عبدوه وهم بني الحارث بن يشكر بن مبشّر من الأزد. وفيه يقول أحد الغطاريف:

إذن لحللنا حول ما دون ذي الشرى وشـجّ العـدى منّـا خميس عـرمـرم

على أن من الأماكن التي كان يقصدها العرب، هي الأماكن الخصبة، والتي غالباً ما كانت تدور الحروب حولها. لذلك فإنه في الصحراء المُجدِبة، تغدو الأماكن الخصبة مواضع متميّزة، لذلك ليس من المستغرب أن يكون العرب قد خلعوا القداسة على هذه المواضع، وجعلوها مراكز عبادة. ويروي ابن هشام في السيرة قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي فيقول «أن ذا الشرى كان صنماً لدوس وكان الحنا حمّى حموه له، وبه وشل من ماء يهبط من جبل[3]. وعلى ما يظهر من هذه الرواية، أنهم كانوا يغتسلون في ذلك الحنا المحمي. فالطفيل عندما جاء من عند رسول الله مسلماً، وأتته صاحبته، قال لها: إليك عني فلستُ منك ولستِ مني، لقد فرّق بيني وبينك الإسلام، فطلبت منه أن تتبع دينه فقال لها: إذن إذهبي إلى حنّا ذي الشرى فتطهري منه. فقالت بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ فقال: لا، أنا ضامن لذلك، فذهبت واغتسلت ثم جاءت، فعرضَ عليها الإسلام، فأسلمت[4].

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٣٠.
(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٣) ابن هشام، السيرة، ص ٢٥٣.
(٤) نفس المصدر، نفس الصفحة.

ويبدو أنّ هذا الإله كان معروفاً عند الأنباط، وهم عبدوه وكان يعني ذات الإله، «إله الشمس». وإذا اعتبر ذو الشرى، الإله الرئيسي عندهم[١] فإنه لم يحتل عند العرب الجاهليين المتأخرين مكانة رفيعة.

يذكر الأب لويس شيخو أن الأنباط كانوا يعبدون الشمس عبادة خاصة وكان لهم في عاصمتهم «سلع» Petra، معبد كبير لإكرامها، وكانوا يدعونها باسم آخر ذو الشرى أي الإله المنير. وقد ورد اسمه مراراً في كتابات عيون وموسى ومدائن صالح وطور سينا. أمّا كون ذي الشرى يراد به الشمس فالأمر واضح من قول «إسترابون» الذي يؤكد أن النبطيين يعبدونها، وكانوا جعلوا عيدها في ٢٥ كانون أول، كما أفادنا القديس إبيغانيوس في كتابة عهد الهرطقات. وزاد مكسيموس الصوري أن النبطيين كانوا اتخذوا صنماً لذي الشرى وهو حجر أسود مكعب علوه أربعة أقدام وعرضه قدمان[٢].

ويذكر المستشرق «نلدكه»، أن النقوش النبطية التي عُثِرَ عليها، ونقوش الشعوب المجاورة لهذا الإله، تُشير إلى وجود أسماء تُنسَب إليه، أمثال: عبد ذي الشرى، وتيم ذي الشرى، كما كان اسم عبد ذي الشرى معروفاً بين الدوسيين. وقد ورد ذكر اسم هذا الإله عند المؤرخين اليونان، لكن أهم المعلومات عنه، ما وجد في عاصمة الأنباط «البترا» Petra، وكان صنماً على شكل حجر أسود خام ذي أربعة أضلاع، طوله أربعة أقدام وعرضه قدمان وكانت دماء ضحاياه وقرابينه تُصَب عليه أو أمامه. وكانت تحته قاعدة ذهبية كما كان يتألق معبده كله بالذهب وبالهبات التي كانت تُنذَر له[٣].

---

(١) الموسوعة الإسلامية، ج ١، ص ٩٦٥، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٦٠.

(٢) الأب لويس شيخو، النصرانية وآدابها، القسم الأول، ص ٩.

(٣) Enc. of. Rel. and Eth. ج ١، ص. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٦١.

يبدو من خلال ما تقدّم، أن اسم الأماكن يتبع أحياناً ما نخلعه نحن عليها، وليس هناك من ثبات ما في الأسماء، إلّا بقدر ما هو متعارف عليه. ولذلك قد نرى بعض الأسماء المتشابهة لأماكن متفرّقة تتشابه فيما بينها بشيء معيَّن. وربما كانت لفظة ذو الشرى كاصطلاح لمكان أو لموضع، قد تأتت عن خلع هذا الاسم على أماكن تواجد هذا الصنم الذي عرفه العرب.

وربما كانوا قد نزلوا فيه بالأماكن الخصبة، وجعلوه إلهاً للخصب.

٢ ـ ذو الخلصة:

يبدو مما ينقله الرواة أن هذا الصنم كان له عند العرب مكانة رفيعة تفوق مكانة ذو الشرى، حتى قيل أنه كان يضاهي في مكانته عندهم، مكانة أرفع بيت ديني وهو حرم الكعبة. وكان هذا الصنم يسمّى الكعبة اليمانية، والبيت الحرام الكعبة الشأمية[١]. يقع هذا الصنم بين مكة واليمن في موضع يدعى «تبالة» على مسيرة سبع ليال من مكة. وقد كان مروة بيضاء، عليها كهيئة التاج، عبدته خثعم وبجيلة وأزد السراة وأقرباؤهم من هوازن.

وفي حديث نبوي، أن طائفة من العرب يرتدون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان، فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة. قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة».

وقد ورد ذكر هذا الصنم في رواية عن أحدهم قُتِلَ أبوه، فأراد الثأر له، فأتى ذا الخلصة واستقسم عنده بالقداح فخرج النهي:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا ... مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العُدَاة زورا

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٤.

(٢) مسند ابن حنبل، ج ٢، ص ٢٧١. مقتبس عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٦١.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٥.

وقد ذكر هذا المعبود خداش بن زهير العامري لرجل كان بينهما عهدٌ فغدر به:

وقـد ذكّـرتـه بـالله بينـي وبينـه ... ومـا بيننـا مـن ودّة لـو تـذكّـرا
وبـالمـروة البيضـاء يـوم تبـالـة ... ومَحبَسـةِ النعمـان حيث تنصّـرا[1]

ويروى أن امرأ القيس مرّ بذي الخلصة وكانت له ثلاثة أقداح: الآمر والناهي والمتربص. فاستقسم عنده ثلاثاً فخرج «الناهي» فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال: لو كان أبوكَ قتل ما عوَّقتني. وغزا بني أسد فظفر بهم[2].

وتضاربت آراء الرواة حول هذا الصنم، وخصوصاً حول اسمه ومكانه. فمنهم من اعتبره بيت لخثعم، وقد كان فيه صنم يدعى الخلصة[3]. وقيل أن ذو الخلصة هو الصنم نفسه كما يذكر ابن الكلبي. ومنهم من قال أنه كان في عسير. أما الأزرقي فيقول أنّ عمرو بن لحي نصب الخلصة بأسفل مكّة[4]. وفي معجم البلدان إن الخلصة من قرى مكة بوادي مر الظهران[5]. والظهران واد قرب مكة و «مر» قرية عنده تضاف إليه فيقال مر الظهران.

ويظهر من تضارب الروايات، أن الزبيدي استنتج من سياقها أن الصنم المذكور في الحديث النبوي هو غير الذي هدمه جرير بن عبد الله بأمر منه، لأن دوساً رهط أبي هريرة من الأزد، وخثعم وبجيلة من بني قيس، فالأنساب مختلفة، والبلاد مختلفة. ثم يرى الصحة في ذي الخلصة أنه الصنم الذي نصبه

---

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٤٧.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٨، ص ٢٩٥.
(٤) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٧٨.
(٥) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٣.
(٦) نفس المصدر، ج ٥، ص ٥٨١.

ابن لحي في أسفل مكة[1]. ويبدو أن هذا الإله كان له عدة أصنام تسمّى باسمه في أماكن مختلفة أطلق اسمه عليها.

ولما جاء الإسلام -أرسل النبي جرير بن عبد الله إليه فسار بفتيان بني أحمس من بجيلة فقتل سدنته، وحارب قبائله وظفر بهم، ثم هدم بنيانه وأضرم فيه النار. بقي أن نعرف في أي مكان حصل ذلك، وإن كنّا نستفيد من نسبته إلى بني خثعم أنه ربما كان موجوداً في مضاربهم، أو أنّهم كانوا يحجون إليه في أماكن أخرى.

٣ ـ ذو الكفين:

ولا ندري ما هي الحكمة من تصنيفه عند معظم الباحثين، تحت عنوان آلهة الأماكن. فذو الكفين كما هو ظاهر من اسمه ينتسب إلى عضو من أعضاء الإنسان. ولكن ربما هذا الإسم أطلق على أماكن متعددة، حيث حُمِلَ هذا الصنم من عبّاده. وذو الكفين كان لدوس، ثم لبني منهب بن دوس، حرقه الطفيل بن عمرو الدوسي وهو يقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
إني حشوت النار في فؤادكا[2]

٤ ـ ذو الرجل:

يبدو أن الأخبار قليلة عن هذا الصنم،وذكره الزبيدي في تاج العروس[3]، فقال: إنه صنم حجازي.

---

(١) تاج العروس، ج ٤، ص ٣٨٩. راجع: محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٦٢.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٧.
(٣) تاج العروس، ج ٧، ٣٤٠، راجع محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٦٣ - والأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٣٠٩.

الباب الثالث
عبادات ومعتقدات أخرى

الفصل الأول

«عبادة النجوم»

١ ـ الصابئة :

● الصابئة هم عبَدَة النجوم. وكانت حرّان في شمالي غربيّ العراق[1] مركزاً مهماً لهم. ولقد أنشئت فيها (حرّان) مدرسة فلكيّة، نقل عنها العرب معظم ما عرفوه من الفلك عن الشعوب الأخرى ولا سيّما اليونان، وذلك بعد الفتح الإسلامي. ولا ندري قبل الفتح الإسلامي، ما هي الصلة بين حرّان وما فيها من عبادات وباطن شبه الجزيرة العربية. لكن المؤكد أنه كان هناك صلة ما، بدليل انتشار عبادة النجوم بين العرب الجاهليين وتأليههم لبعضها.

وعبادة النجوم والكواكب عبادة قديمة جداً، تؤمن بوجود قوى روحانية غير مجسّمة هي التي توصلنا إلى الجلال والعظمة، عبر الأنوار المحضة التي لا ظلام فيها.

وفي كتاب الآثار الباقية للبيروني، تحديد لمنشأ هذه الديانة وتعريف بها. يقول البيروني: هم «المتخلفون من أسرى بابل الذين نقلهم بختنصر من بيت المقدس إليها. ولقد اعتادوا أرض بابل فآثروا المقام بها. ولما لم يكونوا من دينهم بمكان معتمد، سمعوا أقاويل المجوس، وصبوا إلى بعضها، فامتزجت

---

(١) هي اليوم من أعمال تركيا.

مذاهبهم من المجوسية واليهودية، وانتشروا في بلاد الرافدين، على أن أكثريتهم سكنت سواد العراق»[1].

ويتابع البيروني فيقول: وقد يقع الاسم على الحرانيّة... وهذا الاسم أشهر بهم من غيرهم وإن كانوا قد تسمّوا به في الدولة العباسية في سنة ثمان وعشرين ومائتين، ليعدوا في جملة من يؤخذ منه ويرعى له الذمة، وكانوا قبلها يسمّون الحنفاء والوثنية والحرانية»[2].

والحقيقة أن صابئة حرّان قد تكنّوا بالحرّانيين، وكانت لهم معابد وهياكل، وهي حتى بعد ظهور الإسلام. وعُرِف من علمائها المشهورين ثابت بن قرّة، وابنه سنّان بن ثابت، وهما من أشهر علماء الفلك أنذاك. وثابت هو الذي اختلف مع أهل عقيدته في مسائل لم تعجبه، فحرّم عليه الكاهن دخول المعبد، فارتحل إلى بغداد حيث تعرّف على الخوارزمي الذي أعجب به وقدّمه إلى الخليفة أنذاك. إذن الصابئة عُرِفت أيضاً بالحرانيّة نسبة إلى حرّان.

وكان البعض من البحّاثة، يوردون اسم الصابئة من بين المؤمنين غير الوثنيين وذلك لتعلقهم بالروحانيات دون الجسميّات، ومنهم المستشرق كارا دي ڤو، الذي اعتبر أن لفظة صابئة مشتقة من أصل عبري يقابل معناه Baptists أي أولئك الذين يمارسون «المعمودية» بالتفطيس. وهو يرى أيضاً أن الصابئة الوثنيين، الذين لم يعرفوا هذا الطقس الديني مطلقاً، قد يمكن أن يكونوا اتخذوا اسم «الصابئة ليحظوا بتسامح القرآن مع أولي الكتاب»[3].

ويبدو أن التمييز واضح هنا بين الصابئة المؤمنين والصابئة الكفرة، وكيف أنّ الكفرة حاولوا الانتساب بالاسم إلى أولئك المؤمنين. لذلك يعتبر كارا دي

---

(١) محمد البيروني، الآثار الباقية، طبعة ليبزك ١٨٧٨، ص ٣١٨.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) Enc. of. ISLAM، ج ٤، ص ٢١. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٠.

ڤو، أنّ عبَدَة النجوم لم يكونوا يسمون بالصابئة، بل ألحقوا أنفسهم بهذه التسمية ليحفظوا أنفسهم من الإسلام.

ويبدو أنّ الشهرستاني[1] وهو أحد مؤرخي الفرق الإسلاميين، قد فسّر مذهب الصابئة على أنّه يرتكز إلى روحانية أبدعت من أنوار محضة، وليست من مادة ولا من هيولى. والروحانية كما يقول الشهرستاني، متخصصة بالهياكل العلوية مثل زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس والزهرة وعطارد، والقمر، وتأمر باقتفاء آثار هذه الهياكل وحركات أفلاكها زماناً ومكاناً وجوهراً وهيئة ولباساً وبخوراً، وتنجيماً ودعاء، والتقرب إلى هذه الهياكل يكون تقرباً إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب»[2]. وقد جعل الصابئة لهذه الهياكل أشكالاً مختلفة منها المدوّر والمثلث والمربع والمستطيل والمسدس والمثمن[3].

ويذكر الشهرستاني أن بعض الرواة رأى أن الصابئة قديمو العهد، عاصروا إبراهيم وكانوا قبله واستدلوا على ذلك من مناظرة إبراهيم لأبيه ولقومه في ما جاء به القرآن الكريم، كقوله: ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ وقوله[4]: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[5].

ولعل الصابئة كانوا ينتشرون في أماكن متعددة، وفي ذلك يقولون: «وكان في بلاد العرب وفيما يجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار والشمس»[6].

وقد ذكر القرآن الصابئة بالإسم، فقال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨، ج ٢، ص ٦٣.
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٨٧.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٣٦.
(٤) سورة الأنعام، آية ٧٤.
(٥) سورة الصافات، آية ٩٥.
(٦) محمد حسن هيكل، حياة محمد، ص ١٥٠.

هادوا والنصارى والصابئين. . .﴾[1]، وكقوله أيضاً: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى. . .﴾**[2] وأيضاً: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس. . .﴾**[3].

وقد تعني لفظة صابئة، المائلة أو الزائفة، لأن صابئة من صبا أي زاغ ومال، فيكونون هم الزائفون عن الدين وعن نهج الأنبياء. وقد ورد في لسان العرب، صبا، أي خرج من دين إلى آخر، وهي أطلقت على الرسول وأتباعه عندما تركوا ديانة قريش[4].

ويذكر في هذا المجال ما قاله سراقة بن عوف بن الأحوص في أحد الذين أرسله قومه إلى النبي ليرى ما عنده، فإذا به قد عاد مسلماً. وهو هنا يخاطبه ويعاتبه على الميل عن دين قومه واتباع دين محمد، فيتهمه بأنه مع الصابئة أي أتباع محمد:

وجئت بدين الصابئة تشوبه   بألواح نجد بعد عهدك من عهد[5]

ويتحقق ابن العبري من مذهب الصابئة، فيرى أن دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بينهما، وقبلتهم القطب الشمالي[6].

٢ ـ العرب وعبادة النجوم:

إنّ تأليه النجوم عند العرب تأتّى من مصدرين:

١ ـ من احتكاكهم ومجاورتهم للشعوب التي كانت على هذه المعتقدات ولا سيّما صابئة حرّان، والكلدانيين.

---

(١) سورة البقرة، آية ٦٢.
(٢) سورة المائدة، آية ٦٩.
(٣) سورة الحج، آية ١٧.
(٤) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ١، ص ١٠٧.
(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، ص ١٣٨.
(٦) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٦. مقتبس عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٠.

٢ ـ مصدر نابع من حاجتهم العملية لضبط الوقت ومواسم وقوع المطر وللاهتداء بالنجوم في أسفارهم وفي تحديد الجهات. ويغالي بعضهم في ذلك فيقول: «إن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها»(١). أو كما في القرآن ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾(٢).

ولقد أطلق العرب على الكواكب صفات عديدة، لنأخذ منها الثريا، فقد زعموا أن في المطر عند نوئها الثروة(٣)، فليس بعيداً أن تكون مشتقة من الثراء. وفي لسان العرب «والثريا من الكواكب سميت لغزارة نوئها»(٤) وفي العمدة لابن رشيف: «سُمّيت بهذا لأن مطرها عنه تكون الثروة وكثرة العدد والغنى»(٥).

وكان العرب يؤمنون بالأنوار، وهذا ما دعاهم إلى الاعتقاد بأثرها في تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم، مما جعل لكل ذلك الأثر المهم في عبادة النجوم. ومن أمثالهم «أخطأنوؤك» يُضْرَب لمن طلب حاجته فلم يقدر عليها. والنوء النجم يطلع أو يسقط فيمطر، فيقال مطرنا بنوء كذا(٦). «فالنجم إذا سقط فما بين سقوطه إلى سقوط التالي له هو نوء، وذلك في ثلاثة عشر يوماً، فما كان في هذه الثلاثة عشر يوماً من مطر أو ريح أو حر أو برد فهو في نوء ذلك النجم الساقط»(٧). فإن سقط ولم يكن مطر قيل خوى نجم كذا وكذا. ومنهم من يقول إن النوء على الحقيقة للطالع من الكواكب لا للغارب. ومنهم من

---

(١) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٣٨.
(٢) سورة النحل ١٦، آية ١٦.
(٣) القزويني، عجائب المخلوقات، جوتنجن، ١٨٤٩، مقتبس عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٩.
(٤) ابن منظور، لسان العرب مجلّد ١٤، ص ١١٢.
(٥) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج ٢، ص ٢٥٦.
(٦) محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٥.
(٧) القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٤٢.

سمّى تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءاً[١].

ومن الأنواء التي يعتبرها العرب مصدر شؤم، نوء «الدبران»، وهو ذلك الكوكب الأحمر المنير الذي خشيته العرب وتشاءمت به، وزعمت أنهم لا يمطرون بنوئه، إلا وسنتهم جدبه. ففي نوئه يشتد الحر وتهب السمائم. ومما قيل في طلوعه: «إذا طلع الدبران، توقدت الخزان، وكرهت النيران، واستعرت الونان، ويبست الغدران»[٢]. فلا غرابة إذا ضربت العرب بشؤمه المثل، فقالت: أشأم من حادي النجم، وهو اسم آخر له[٣].

وهكذا نرى أن اهتمام العرب بالنجوم قادهم إلى عبادتها وتأليهها، وأن بعضهم كانت معارفهم بها على قسط كبير من الإلمام، فقالوا: «إن أعلم العرب بالنجوم بنو مارية بن كلب وبنو مرّة بن همام بن شيبان»[٤].

٣ ـ بعض النجوم التي عُبدت:

أ ـ الزهرة:

عرف العرب المذهب الصابئي، وكانت لعبادة النجوم عند عرب الجنوب مكانة عظيمة[٥]. ولم تكن المسألة مختصة فقط بحميَر وسبأ، بل تعدتها إلى العرب جميعاً، وحتى إلى معظم الشعوب الساميّة. ويرى «نلدكه» أن العرب قد عبدوا الشمس وغيرها من الكواكب كما عبدوا مؤلهات أخرى. . .»[٦].

وكان العرب كما مر معنا سابقاً، قد سمّوا «العزّى» الزهرة. وفي ذلك

---

(١) محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٥

(٢) الألوسي، ج ٣، ص ٢٣٧. مقتبس عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٦.

(٣) القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٣٦.

(٤) البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٤١.

(٥) Enc. of. Islam, I, ص ٣٧٩.

(٦) ص ٦٦٠، ج ١ Enc. Rel..

يقول المستشرق كارلو ألفونسو نلينو، إننا نستفيد من المؤلفين السريانيين واليونانيين من القرن الخامس والسادس الميلاديين، أن بعض العرب المجاورين للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها، وكانوا يسمونها إذ ذاك العزى[1]. كما أن بعضهم اعتبر أن الكوكب الزهرة، لم تكن آلهة قبليّة، وإنما كانت معبودة عرب الشمال بأجمعهم»[2].

هذا الكوكب كانت له تسميات مختلفة، باختلاف الشعوب التي عبدته، فدعي عند الهنود بمايا، وعند الفرس مثيرا، وعند الفينيقيين عشتروت، والرومان واليونان ڤينوس، واصطلح العرب على تسميته بالزهرة، وهي إلهة الحب والجمال. وكانت عبادة هذا الكوكب قائمة باستباحة المنكرات وارتكاب القبائح الناشئة عن روح العشق في الطبيعة البشرية. لذلك اشتهرت عبادتها عند كل الشعوب القديمة، وأقيمت لها المعابد ونُحِتت لها التماثيل. وصورة الحسناء العارية، عمت عند مختلف الشعوب، في العراق القديم وسوريا وفينيقية، على أنها إلهة الحب والفسق. وقد حملت هذه الالهة الكوكب، معاني البياض والحسن والبهجة عند العرب[3]. وقد دعيت كما سمّاها المنجمون بالسعد الأصفر، لأنها في السعادة دون المشتري، وأضافوا إليها الطرب والسرور واللهو[4].

ولم تقتصر فتنة الزهرة على بني الإنسان بل تعدتها إلى الملائكة، فتمكنت من إغرائهم. وفي هذا يورد البعض رواية تقترب من الميثولوجيا، ويقولون أن عرب الجاهلية قد عرفوها. هذه الرواية تستند إلى تفسير آية قرآنية ﴿**وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين**

---

(١) عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٧.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) بطرس البستاني، دائرة المعارف، مجلد ٩، ص ٢٨٥، ٢٨٧. وابن منظور، لسان العرب، مجلد ٤، ص ٣٣٢.

(٤) القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٢٢.

ببابل هاروت وماروت﴾[1]. وقصة فتنة الزهرة لهذين الملكين شائعة في كتب التفسير والرواية وهي تتناول كيف أن هذين الملكين أهبطا من السماء لهداية الناس وعندما تعرّفا إلى امرأة حسناء وهي الزهرة، وقعا في شركها وارتكبا المعصيات كشرب الخمر وقتل النفس، وعبادة الأصنام. وعندما أصبحا عبدين لها أي للزهرة، علّماها كيفية الصعود إلى السماء، ففعلت وصعدت ونسيت كيف تهبط فبقيت هناك، وجعلها الله ذلك الكوكب الجميل. أما الملكان فقد بقيا على الأرض بعد أن اختارا عذاب الدنيا لأنه زائل[2].

هذه الرواية كانت معروفة عند عرب الجزيرة، وظاهرٌ هذا من أنّ عبد الله بن عمر كلما رأى الزهرة لعنها وقال هذه هي التي فتنت هاروت وماروت[3].

ب ـ الشمس:

إن النقوش اليمنية والحضرمية والتي يعود تاريخها إلى عهد الحضارات الجنوبية المندثرة هي التي سمحت بالاعتقاد بأن عبادة النجوم كانت سائدة أنذاك. ويبدو أنّ السبئيين والحميرين قد نشأوا عليها، إلى أن دخلت اليهودية على يد الملك ذو النواس. وفي حديث سليمان والهدهد دلالة على عبادة أهل سبأ للشمس، وفي ذلك يقول القرآن: **﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾**[4].

---

(١) سورة ٢٥، آية ٩٦.

(٢) يراجع في هذا الشأن لمعرفة القصة بكاملها، كتاب تفسير الطبري، ج ١، ص ٣٤٣، والنيسابوري، تفسير القرآن على هامش تفسير الطبري ج ١، ص ٣٤٧. ويراجع محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٩٠.

(٣) تفسير الطبري، ج ١، ص ٣٤٥.

(٤) سورة النمل، آية ٢٠.

والإله بعل الذي عُرف داخل شبه الجزيرة العربية، في الواحات ومساقط الأمطار، هو إله الشمس، وقد عبدته قبائل عربية متعددة وتسمّت به «كعبد شمس، وامرىء الشمس، وعبد السارق، وعبد المحرِّق» وتشخّصت الشمس بصنم وبنوا لها الهياكل.

وعبادة الشمس كانت سائدة عند الأنباط، وأن العرب كما جاء عند هيرودتس كانوا يعبدون «أوروتال» وهي لفظة مركبة في اللغات الأرامية من كلمتي «نور» و «علا» أي النور المتعالي، وأرادوا به الشمس[١]. هذا بالإضافة إلى أن الصنم ذي الشرى كان اسمه يعني الإله المنير.

وفي المعاجم العربية يورد ابن منظور: وشمس صنم قديم، وعبد شمس بطن من قريش قيل سمّوا بذاك الصنم[٢]. أمّا ياقوت فيقول: إن شمساً صنم كان لبني تميم وله بيت، وكانت تعبده بنو أدّ كلها، ضبة، وتيم، وعدي، وثور، وعكل. وكانت سدنته في بني أوس[٣]. وكان أيضاً لقوم من بني عذرة صنم يقال له شمس.

ج ـ القمر:

القمر عند البابليين دُعي «سن» أي سيد الكواكب، وكانت له في «أور» و «حرّان» و «بابل» مراكز عبادة، كما كانت سيناء وأريحا مزارات مقدسة له[٤]. كل هذه المواضع التي ذكرنا كان العرب على اتصال معها.

ومع قلة النصوص التي بين أيدينا، والتي تظهر عبادة هذا الكوكب عند العرب، إلاّ أننا نستطيع من خلال القرآن أن نؤكد وجود هكذا نوع من العبادة.

---

(١) الأب لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول، ص ٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٦، ص ١١٤.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٦٢.

ص ٢٤٨، ج ٩ .Enc. of. Rel. عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٩٥.

قال الله تعالى في كتابه: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن﴾[١].

ويرى الدكتور جواد علي، أن عرب الجنوب، وخصوصاً الحميريين، قد عبدوا القمر وسمّوه «ود»، و «سين» و «المقه»[٢].

وكان بنو كنانة أيضاً يعبدون القمر[٣]. ومما رُمِز إليه هذا الكوكب صورة العجل عند الصابئة. ومما زُعِمَ أيضاً أن بنات الله عند العرب ثلاثاً، المناة واللات والعزى، وإنّما هي الهات القمر. فمناة القمر المظلم، واللات القمر المنير، والعزى، الإثنان معاً[٤].

ونجد بين العرب من تسمّى بالقمر كما تسمّوا بالشمس من قبل، فكان بين أحيائهم بنو قمر، ومن بطونهم بنو قمير[٥].

د ـ الديران:

وهو كوكب، سُمّي كذلك لأنه دبر الثريا، أي جاء خلفها. ويقال له أيضاً الراعي والتالي والتابع والحادي والمخدج. وهو النير الأحمر العظيم الواقع على عين الثور الجنوبية. ومن أسمائه الفنيق، وهو الجمل الضخم، والتي حواليه من الكواكب هي القلاص المذكورة[٦].

ولقد عبدته كنانة وقريش، وطائفة من تميم. وكان هذا الكوكب مشؤوماً، لذلك عبده العرب خوفاً منه لا رغبة فيه.

---

(١) سورة فصلت ٤١، آية ٣٧.

(٢) جواد علي، المفصَّل في تاريخ العرب، ج ٢، ص ١٢٤، ١٣٢، ٢٧١.

(٣) الأب لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول، ص ٩.

(٤) محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٩٧.

(٥) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٦) نفس المصدر، ص ٩٩.

هـ ـ الثريا:

كوكب مؤله عند العرب، وهو سمّي كذلك لغزارة نوئه، وهو المستسقي لهم في أيام الجفاف. فقالوا: إذا رأيت «الثريا» تدبر فشهر نتاج وشهر مطر[1]. وقد تسمّى العرب بـ «عبد الثريا» وبـ «عبد نجم» ونجم اسم آخر للثريا.

والبيروني يقول عن الثريا أنها «تصغير ثروي وأصله من الثروة وهو الاجتماع وكثرة العدد وزعم بعضهم أنها سميت بذلك لأن المطر الذي يمطر بنوئها تكون منه الثروة وهو الغنى، وتسمّى أيضاً النجم»[2].

وهكذا يبدو أن عبادة العرب للثريا تختلف عن عبادتهم للدبران، فهي فأل خير لهم بالمطر والإنتاج، ولقد عبدها بعض قبائل طيء.

و ـ الشعريان:

الشعرى هو ذلك النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء على ما يذكره الطبري. وقد عبده قوم من العرب في الجاهلية، ومنهم بني قيس عيلان، وخزاعة، التي سنّ لها أبو كبشة وهو أحد أشرافها، عبادة هذا الكوكب.

وإذا كان البعض[3] يرى في الشعرى، لفظة غريبة مأخوذة عن اليونانية، وأنها غير معروفة في بطن شبه الجزيرة العربية، فإن مقابلها هو ما عُرِف عند العرب باسم «المرزم»[4].

وقد ذكر القرآن عبادة هذا الكوكب، فقال تعالى: ﴿إنه هو رب الشعرى﴾ وقد ورد في أشعار الجاهليين، كما هو ظاهر في هذا البيت من لاميّة الشنفري:

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه من رمضائه تتململ

ويبدو أنه كان يرمز إلى الحرّ الشديد.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٤، ص ٢٧١.

(٢) البيروني، كتاب الآثار الباقية، ص ٣٤٣.

(٣ ـ ٤) راجع محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٠١.

ويطلق العرب اسم «الشعريين» على «الشعرى العبور» التي في الجوزاء، و «الشعرى الغميصاء» التي في الذراع»[1]. وتزعم العرب في أخبارها أن الشعريين أختا سهيل حيث كانت ثلاثتهم مجتمعة، فانحدر سهيل فصار يمانياً، وتبعته الشعرى اليمانية عابرة المجرة، وبذلك سُمّيت عبوراً. وهي ترى سهيلاً إذا طلع فكأنها تستعر! أمّا الغميصاء فإنها أقامت مكانها وبكت على أثر عبور أختها وراء سهيل، وذلك لفقدهما، وما زالت تبكي حتى غمضت فسُمّيت الغميضاء»[2].

لم يقتصر الأمر على ما ذكرنا من كواكب، بل كان هناك كثيراً غيرهم، فقد عبدت بنو لخم وجرهم المشتري، وبعضهم أكرم زحل والجوزاء والجبار، وبعض طيء عبدت سهيلاً، ذلك النجم الذي إذا وقعت عين الجمل عليه مات لساعته.

وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم، والمرزمان نجمان مع الشعريين، كما قيل إن عطارد عبد بين عرب بني تميم[3].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٤، ص ٤١٦.

(٢) نفس المصدر، مجلّد ٤، ص ٤١٧.

(٣) يراجع هنا محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٩٨.

الفصل الثاني

عبادات ومعتقدات متنوعة

١ ـ تقديس الإنسان:

لقد شخّص العرب أصنامهم على هيئات مختلفة، منها هيئة الإنسان. ودليلنا على ذلك ما أوردناه في قصة أصنام قوم نوح، الذين ماتوا فنحتت صورهم وعبدوا[١]. ويروى في هذا الإطار، أنّ عامر بن طفيل بعدما مات وكان قد انصرف عن النبي، نصبت عليه بنو عامر أنصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره لا ينشر فيه ماشية، ولا يُرعى ولا يسلكه راكب أو ماش. وكان رجل منهم يقال له حيان بن سلمى غائباً فلما قدم قال: ما هذه الأنصاب؟ قالوا: نصبناها حمى لقبر عامر بن الطفيل! فقال: ضيّقتم على أبي علي! إن أبا علي بان من الناس بثلاث: كان لا يعطش حتى يعطش الجمل، وكان لا يضل حتى يضل النجم، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل[٢].

وهكذا يظهر أن بعض القبائل العربية قد قدّست أشرافها وأسيادها ورؤسائها ورفعتهم إلى مستوى العبادة. سئل ابن الطفيل بعد دخول الناس في الإسلام أن يدخل هو أيضاً، فقال: «والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي فأتبع أنا هذا الفتى من قريش»[٣].

---

(١) راجع ما قلناه في الفصل...

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، ص ١٣٩.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٧.

ويروى أن رجلاً يدعى الزبرقان بن بدر، كانت الناس تحج إلى بيته. ينقل محمد الجارم عن السهيلي قوله: «وكان الزبرقان يرفع له بيت من عمائم وثياب وينضح بالزعفران والطيب، وكان بنو تميم تحج ذلك البيت»[1].

والزبرقان كما يروي الطبري، اسمه الحصين ويُلقب بقمر نجد، وهو من أشراف بني تميم. قال مفتخراً ومشيراً إلى حج العرب بيته:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... من الملوك وفينا تنصب البيع[2]

والحديث عن أصنام عمرو بن لحي، لهو دليل على ما كان عليه العرب من تعظيم لرؤسائهم وأشرافهم. فهذا الكاهن كما يدعونه، قد بلغ عندهم مرتبة من الشرف لم يبلغها لا قبله ولا بعده أحد. ويكفي أن تذكر الروايات أو تنسب إليه أنّه هو الذي أدخل معظم أصنام العرب إلى شبه الجزيرة العربية، ودفع معظم قبائلهم إلى عبادتها وتقديسها.

وفي ذلك يقول الأزرقي: «بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية... وكان قد ذهب شرفه في العرب كل مذهب، وكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف»[3] وهناك البعض الذي غالى في أمر عمرو هذا، فجعله للعرب رباً لا يبتدع لهم بدعة إلاّ اتخذوها شرعة، فهو كان يُطعِم الناس ويكسوهم في الموسم، وينحر لهم عشر آلاف بدنة، ويكسي عشرة آلاف حلّة[4]. وهكذا رُفعت مكانة هذا الكاهن إلى مستوى الربوبية والعبادة، من قبل بدوي ساذج، أنهكته حياة الصحراء وضيّقت آفاق معرفته واعتقاداته.

---

(١) محمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية، ص ١٢٤.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٧١٢. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٠٤.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٥٨.

(٤) السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

ويجب أن لا ننسى قصة الصنم أساف، وقصة نائلة معه، حيث كان رجلاً وامرأة ارتكبا فجوراً في حرم الكعبة، فمسخا. وقد عبدتهم العرب وخصوصاً خزاعة وقريش[1].

٢ ـ تقديس الحيوان:

ومن الأصنام عند العرب ما كان على صورة حيوان، مثل «ود» الذي كان على صورة أسد، و «يعوق» على صورة فرس، و «نسر» على صورة نسر. وقد ذكرنا في ما سبق أن هناك صنماً يدعى «غزالا مكّة»، وهناك أيضاً آلهة على هيئة حيوان، كالعوف واليعبوب، وحمام مكة المحرم. وهناك إله دعوه «مطعم الطير» نصبوه على المروة، كما أن هنالك بين الأصنام ما كان يهدى له الشعير والحنطة[2].

ويروى عن عمرو بن لحي، أنه أول من بحَّر «البحيرة» وسيّب «السائبة»، ووصل «الوصيلة» وحمى «الحامي». فالسائبة وهي الناقة والبحيرة هي ابنتها، والوصيلة الشاة، والحامي هو الفحل من الإبل، وجميعها تسيب في حمى الإله ويحرّم لبنها ولحمها وقص وبرها وركوبها[3]. وكل حيوان هرب أو تاه والتجأ إلى حمى الآلهة، تمتع بنفس الحرية التي تتمتع بها البحيرة التي ذكرنا، ويصبح بالتالي ملكاً للإله. وفي حديث مالك بن كلثوم الذي أوردناه سابقاً، مع سادن صنم طيء إشارة إلى ذلك، عندما أراد مالك استرداد ناقة جاره التي هربت ودخلت حمى الإله، فرد عليه السادن، إنّها لربك[4].

وجاء في القرآن عن الحيوانات التي قدّسها العرب **﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء، بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا**

---

(١) راجع ما أثبتناه في هذا المجال في الباب الثاني...
(٢) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٧٨.
(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، ص ١١٦.
(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٦٠.

يذكرون اسم الله عليها﴾[1] كما جاء في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾[2].

أما في الشعر الجاهلي فقد ورد ذكر الوصائل والحاميات والسوائب:

حول الوصائل في شريف حِقة والحاميات ظهورها والسُيَّبُ[3]

أما تميم بن صعصعة أحد بني عامرة فيقول في البحيرة:

فيه من الأخرج المرباع قرقرة هدر الدّيافي وسط الهَجْمة البُحر[4]

ويبدو أن الطوطمية احتلت مكانة مهمّة عند العرب، حيث كانوا يشاركون آلهتهم في الاغتذاء بالحيوان في حالات دينية استثنائية واحتفالية. هذه الحالات كانت تنتعش فيها حياة القبيلة، وتتجدد باشتراكها مع الإله في اقتسام هذا الحيوان، بحيث يتناولون هم لحمه، بينما يكتفي الرب بالروح أو بالدم الذي يراق على رأس الصنم. ولأجل ذلك كثيراً ما تسمّت القبائل بأسماء حيوانات، من طيور وزواحف وهوام، فكان بينهم عنبس، وحيدرة، وأسامة، وهرثمة بمعنى الأسد. وكان بينهم أوس، وذؤالة ونهشل بمعنى الذئب، وكذلك كلثوم «الفيل» والحنش والأراقم «الحيات». وكان بينهم هوزة «القطاة» والقطامي «الصقر» واليعقوب «ذكر الحجل» والهيثم «فرخ العقاب» وعكرمة «الحمامة»، وكذلك جندب «الجرادة» والذر« أصغر النمل»، والعلس «القراد» والفرعة «القملة» وغيرها[5].

أما حادثة مجيء وفد من طيء إلى عند رسول الله للاستماع إليه عن قرب

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٣٨.
(٢) سورة المائدة، آية ١٠٣.
(٣) ابن هشام، السيرة، ص ٩١.
(٤) ابن هشام، السيرة، ص ٩١.
(٥) محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٠٩ عن أدب الكاتب ص ٧٠ ـ ٧٤.

في المدينة، فتنبىء عن نهي رسول الله لهم عن عبادة الحيوانات. يقول الرسول: «**إني خير لكم من العزى ولاتها، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله**»[1].

ويروى أيضاً عن عمرو بن حبيب، أنه أغار على بني بكر وأصاب شعباً كانوا يعبدونه، ونحره وأغاظهم، ثم أكله[2].

٣ ـ تقديس النبات:

إن الأشجار والنباتات كانت قليلة في باطن شبه الجزيرة العربية نظراً لجدبة الأرض وقلة الأمطار. لذلك فإن الأشجار والنباتات، كانت تشكل لهم مظهراً مهماً من مظاهر المنّة التي له علاقة مهمة بمقوِّمات حياتهم. وكل ما له علاقة بقوام الحياة، شكّل عند العرب رمزاً مقدّساً، فكثيراً ما أقاموا مزاراتهم ومارسوا طقوسهم الدينية، ونصبوا أوثانهم وأصنامهم في مناطق خصبة ومروية.

وطبيعي أن يتواجد في هذه المواضع على ندرتها، بعض الأشجار وبعض النبات.

وشكلت شجرة النخيل مقوِّماً هاماً من مقوِّمات الوجود، فهي رافقت البدوي في أقسى ظروف حياته وأنتجت له ما أغناه أحياناً عن الموت جوعاً، لأجل ذلك عُظِّمت وقدِّست وعُبِدَتْ.

وقصة شجرة الحديبة التي رواها عمر بن الخطاب، لهي أكبر دليل على تقديس العرب للأشجار، يقول على ما ذكره ياقوت[3]: «إن الناس يكثرون قصدها (شجرة الحديبية) وزيارتها والتبرك بها فخشي أن تعبد كما عبدت اللات

---

(١) محمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية، ص ١٢٤.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٢٩.

والعزى، فأمر بقطعها وإعدامها فأصبح الناس فلم يروا لها أثراً. والشجرة هذه هي المعنية بالآية **﴿ولقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾**[1].

وكان أهل نجران قبل أن يتنصروا يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد كل سنة. وإذا جاء هذا العيد كسوها بالثياب الحسنة، والحلى، ثم يخرجون إليها فيعكفون عليها يوماً[2].

ولم تكن عبادة الأشجار منتشرة فقط بين عرب الجنوب، بل كان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً[3].

ويروى عن الحارث بن مالك الليثي، وهو من الذين خرجوا مع الرسول في يوم حنين، أنهم رأوا سدرة خضراء عظيمة، فصرخوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط! فقال الرسول: «**الله أكبر! قلتم، والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى لموسى إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**»[4].

وهكذا كثر ذكر الأشجار وأهميتها في عادات وطقوس العرب الدينية، وقد توالى ذلك حتى بعد ظهور الإسلام كما هو وارد في ما سبق وذكرناه.

٤ ـ الجن:

إن الاعتقاد بوجود قوى خفيّة تحرِّك الكثير من الظواهر، وتفسّر من خلالها الكثير من السلوكات، لهو أمرٌ ملازم لكل الشعوب البدائية. فالعقل البشري مشدود إلى الاعتقاد بوجود قوى خفيّة خارقة، تُنسب إليها كل ما يعجز العقل البشري أنذاك عن الإحاطة به. فعني بذلك كل ما هو وراء المحسوس.

---

(١) سورة الفتح ٤٨، آية ١٨.
(٢) ابن هشام، السيرة، ص ٣٣.
(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، ص ١٣٠.
(٤) نفس المصدر، ص ٨٢ ـ ٨٣.

ومن هذه القوى الخفية، الجن، حيث كانت عبادتهم منتشرة بين كثير من القبائل العربية «فكانت بنو مليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات، يعبدون الجن»[1]، وفيهم نزلت الآية: **﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾**[2].

ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الجن وكيف كانت تعبدُ **﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾**[3]، ومنها أيضاً **﴿وجعلوا للّه شركاء الجن﴾**[4]، **﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾**[5] و **﴿إنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾**[6].

وكلمة جن كانت شائعة عند عرب الجاهلية، وهم عنوا بها القوى المتسترة والمتخفية. يقول ابن منظور في لسان العرب: «والجن نوع من العالم سمّوا بذلك لأنهم لا يُرَوْن»[7].

وكان شائعاً بين الناس أن الجن خُلِقوا قبل الآدميين، وقبل جدهم آدم، وهذا وارد في قصة الخليقة في القرآن الكريم.

وإذا كانت الجن قوى خفيّة تظهر لنا بأشكال مختلفة، فهم أيضاً عشائر وقبائل، تتقاتل وتتصالح فيما بينها، لها ملوك وسادات، تحفظ العقود وتعقد الأحلاف بين القبائل. من هذه القبائل، بنو غزوان[8].

ولقد قدّم الجاهليون الأضحيات للجن وحاولوا استرضاءهم وتجنّب

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٤.
(٢) سورة الأعراف ٧٥، آية ١٩٣.
(٣) سورة سبأ ٣٤، آية ٤٠.
(٤) سورة الأنعام ٦، آية ١٠٠.
(٥) سورة ٦، آية ١٢٨.
(٦) سورة ٧٢، آية ١٦.
(٧) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٣، ص ٩٣.
(٨) نفس المصدر، مجلّد ٥، ص ٨٩

أذاهم، وكانوا يكرمونهم خصوصاً إذا ما أرادوا أن يسكنوا بيتاً جديداً أو يحفروا بئراً للماء، وذلك بتقديم الذبائح لهم. والاعتقاد بوجود الجن ما زالت سائدة حتى اليوم، وحتى بين المؤمنين، فلا يمر أحدهم بمجرى ماء إلاّ ويذكر اسم الله تحسباً لأذى الجن، وما كانوا يدخلون العتبات إلا باستباقها بالبسملة. وحتى هم لا يصبون الماء الساخن إلاّ ويذكرون اسم الله حتى لا تغضب الجن. وذكر اسم الله هو الذي يقينا شرور وأذى الجن المؤذي. كل ذلك ينم عن أن هذه العقيدة كانت سائدة بين العرب وهي اعتقاد قوي بوجود تلك القوى الخفيَّة وبتأثيرها على الناس سلباً وإيجاباً.

ومن أكثر الأماكن التي كان يعتقد العرب بتواجد الجن فيها، فهي المواضع الموحشة والمظلمة والمقفرة، والفجوات والمغاور والأودية والجبال.

وكثيراً ما ورد في أشعار الجاهليين ذكر الأماكن التي يتواجد فيها الجن، ويُضرَب بها المثل، وهي منتشرة في شتى أنحاء الجزيرة العربية. لقد قيل: جن البدي، وجن البقّار، وجن ذو سمار، وجن عبقر، وغيرها، وكلها وردت في أشعار للنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وغيرهم.

ومن الأمثال السائدة في الجاهلية، «كأنّهم جن عبقر»[١]، وعبقر موضع بالبادية كان كثير الجن، وهو من أشهر الأماكن في ذلك، ولهذا كثر ذكره في الشعر الجاهلي.

وكان الجاهلي يستجير بالجن في أسفاره وفي منزله، ويستعيذ بهم، كأن يقول: نعوذ بكبير هذا الوادي، أو هذا المكان، وإلى ذلك أشار القرآن **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾**[٢].

ويروى عن حجاج بن علاط البسلمي، أنه عندما نزل بواد مخوف موحش في ركب له، وهو يقصد مكة، قال وقد جنَّ الليل:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٤، ص ٥٣٤.

(٢) سورة الجن، آية ٦.

أعيـــذ نفســـي وأعيـــذ صحبـــي   مـــن كـــل جنّـــي بهـــذا النقـــب
حتى أأوب سالماً وركبي[1]

ومن مخاوفهم من الجن وخصوصاً في المواضع الموحشة بالأودية، وفي أماكن تواجد الوحوش المفترسة، ما كان يؤدي إلى أن يستجيروا بهم، وفي ذلك يقول أحدهم وهو يستجير بجن عالج:

يـا جـن إجـزاء اللـوى مـن عـالـج   عـاذ بكـم سـاري الظـلام الـدالـج
لا ترهقوه بفوى هائج[2]

ومن جملة اعتقاداتهم في الجن أنها كانت تعزف في المغاور بالليل، ففي حديث لابن عبّاس يقول: «كنت الجن تعزف الليل كله بين الصفا والمروة»[3].

وربما تصوّروا هذا العزيف كضرب الصنوج. قال القطامي:

تبيـــت الغـــول تهـــزج أن تـــراه   وصنـج الجـن مـن طـرب بهيـم[3]

وتصوروا أيضاً هذا العزيف كقرع الطبول وكحديث السمر، كما شبهوا هذه الأصوات بأصوات الريح وهي تتخلل أغصان الشجر، وكأزيز الذباب.

ومن اعتقادات الجاهليين أن الجنّ قد تتلبس في أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات، وهذه كلها عرفت بـ «مطايا الجن» ولم يستثنوا منها سوى الأرانب لأنّها تحيض والضباع لقذارتها، والقردة لزنيها. وتمتطي الجن هذه الحيوانات وخاصة الظباء[5] في البوادي.

---

(١) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٧٢٠.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٧٢٠.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٩، ص ٢٤٤.
(٤) نفس المصدر، مجلّد ٢، ص ٣١١.
(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج ٨، ص ٧٨.

ومن اعتقادات الجاهليين إن الجنّ أرواح تتزاوج مع الأنس، وقد تخاوي بعضهم وقد تدخل في الحيوان وتركبه، وقد تصد البقر عن الماء، وتعتلي ظهور الخيل، وهي لأجل ذلك تتلوّن بألوان مختلفة وهذا ما عناه عنترة بقوله:

والغـول بيـن يـديَّ يخفـى تـارة ... ويعـود يظهـر مثـل ضـوء المشعـل
بنـواظـر زُرْق ووجـه أسـود ... وأظـافـر يشبهـن حـدّ المنجـل
والجـن تفـرق حـول غـابـات الفـلا ... بهمـاهـم ودمـادم لـم تغفـل[1]

وكانوا أيضاً ينفرون من بعض النساء لأنها تشبه الجن، أو أن يكون الجن قد تلبسها:

طـافـت بهـا ذات ألـوان مشبهـة ... ذريعـة الجـن لا تعطـى ولا تـدعُ[2]

ومن أنواع الجن عند العرب:

أ ـ إبليس:

وهو الذي تحدث عنه القرآن وقال أنه عصى أوامر ربه ولم يسجد لآدم كما فعل سائر الملائكة. وهو روح شر، عدو للّه وللإنسان، وصاحب روح بخسة. وهو في الأساس مِلكٌ من الملائكة، تكبّر وتجبّر، فكان من الكافرين **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾**[3].

ونستدل من آية قرآنية ثانية أنه كان من الجن: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن﴾**[4].

---

(١) ديوان عنترة، مكتبة كرم (دمشق) ص ١٤٣. مقتبسة عن الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ٣٦٠.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٨، ص ٩٦.
(٣) سورة الحجر، آية ٣٢، سورة البقرة، آية ٣٤.
(٤) سورة الكهف، آية ٥٠.

وإبليس، والذي يسمّى أيضاً بالشيطان، قد يتلبس صورة إنسان أو صورة حيوان، وهو يوحي بالدونية والانحطاط والرذالة والسفاهة، والتكبر.

ومن أولاد إبليس التي يذكرونها، خمسة هم: تبر صاحب المصايب، والأعور صاحب الزناء، ومبسوط صاحب الكذب، وداسم صاحب البغضاء والمفرّق بين الزوجين، وزلنبور صاحب الخصومة وأهل السوق(1).

ب ـ الغيلان:

الغول حنبس من الجن والشياطين، وقد تتلوّن وتتشكل بهيئات مختلفة. وفي حديث للرسول، قال: «**وإذا تغوّلت لكم الغيلان فبادروا بالآذان..**».

وقد ورد ذكر الغول وتلوّناته في الكثير من الشعر الجاهلي، عند الأشجعي، وزهير بن أبي سلمى وامرؤ القيس وعنترة كما مرّ معنا سابقاً(3).

ويروي صاحب الأغاني قصة الشاعر ثابت بن جابر بن سفيان، ولماذا سُمّي بتأبط شراً. ذلك أنه صادف غولاً في ليلة مظلمة، وفي موضع يقال له رحى بطان، فقتلها وبات عليها، ولما أصبح حملها تحت إبطه، وجاء بها إلى أصحابه، فقالوا: تأبطت شراً(4).

فالغول عند الجاهليين نوع من الجن، اعتقدوا بوجودها وتمثلوها على هيئات وأشكال مختلفة.

ج ـ السعلاة:

إنها ساحرة الجن، وهي الغول بذاتها، وقد ورد ذكرها في أشعار

---

(1) القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٣٦٨، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٢٠.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١١، ص ٥٠٧.

(3) راجع ما قلناه في شعر عنترة قبل صفحة.

(4) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٨، ص ٢١٠.

الجاهليين بكثرة، وهي شُبهت بالفرس، وبالحمار الوحشي (الشحَاج)، وبالمرأة وعنترة شبهها بالخيل:

أمـــارس خيـــلاً للهجيـــم كـــأنهـــا سعـــال بـأيـديهـا الـوشيـح المقـدُّ[1]

د ـ العفريت والمارد:

وهما من أصناف الجن. وقد ورد ذكر العفريت في القرآن: **﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به﴾**.

أما المارد، فهو العاتي الخبيث من الجن[2]. وقد ورد ذكره في القرآن **﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾**[3] و **﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾**[4].

وقد ورد ذكرهما في أشعار الجاهليين.

هـ ـ الخابل:

وهو ضرب من الجن، أو أنه الجن نفسه سُمّي بالخابل الذي يخبل الشعراء.

قال أعشى سليم:

ومـــا كـــان جنـــي الفـــرزدق قـــدوة وما كان فيهم مثل فحل المخبَّل

٥ ـ الملائكة:

وقد ورد ذكرها في القرآن وبمواضع كثيرة. وقد عبد الجاهليون الملائكة، مثال ذلك قول قرشي للرسول: نحن نعبد الملائكة وهي بنات

---

(١) ديوان عنترة، ص ٦٨. مقتبسة عن الأب جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، ص ٣٦٧.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٣، ص ٤٠٠.

(٣) سورة الصافات، آية ٤.

(٤) سورة الحج، آية ٣.

الله[1]. وقال تعالى: **﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾**[2].

ومهما يكن من أمر فإن عبادة الجن والملائكة كانت منتشرة بين العرب، ولربما معرفتهم بهذه الأمور قد تأتت من دخول قصص الجن والملائكة مع بعض الديانات السماوية التي عرفتها شبه الجزيرة العربية وخصوصاً اليهودية والنصرانية وما ورد فيهما من هذه القصص.

٦ ـ الكهانة والعرافة:

كان العرب يعتقدون أن الجن تسترق السمع من الناس، وتنقله إلى الكهنة. فالكاهن له تابع من الجن هو الذي يأتيه بالأخبار ومنه يعرف خفايا الأمور. وصناعة الكهانة كانت معروفة وشائعة عند العرب وهي «استخدام الجن في معرفة الأمور المغيبة». وفي ذلك تحدث ابن خلدون، واعتبر أن الكهانة استعداد فطري عند الإنسان للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية. وكثيراً ما يستعمل الكهان السجع في أقوالهم، وهم يصدقون ويكذبون، ويفزعون أحياناً إلى الظنون والتخمينات[4].

أمّا طاش كبرى زادة، فقد ذكر في مفتاح السعادة، أن علم الكهانة «هو مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجرّدة من الجن والشياطين واستعلامها منها الأحوال الجزئية الجارية في عالم الكون والفساد، لكنها مخصوصة بالأمور المستقبلة»[5].

---

(١) ابن هشام، السيرة، ص ١٨٩.
(٢) سورة سبأ ٣٤، آية ٣٩.
(٣) دائرة معارف القرن العشرين، البستاني، ج ٨، ص ٢٢٥. عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٣١.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠١.
(٥) طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، حيدرأباد، ١٣٢٨، ج ١، ص ٣٠١.

وكان العرب يعتقدون أنّ هناك أرواحاً خفيّة تسكن الأصنام وتحل الأوثان، وأنهم كانوا يسمعون همهمات من أجوافها.

وفي كل قبيلة كان هنالك كاهنها الخاص، وهو في آن معاً حكيمها وخطيبها وطبيبها، وغالباً ما يكون من أشراف القبيلة. يقول الأب لامنس: «وقد يدعى الكاهن أحياناً بالحكم وهي رتبة تفرض عادة رتبة السيادة، وتدعو الناس إلى استشارة صاحبها ضرورة قبل القيام بأية غزوة أو غارة...»[1].

ولفظة كاهن عربية، فقد وردت في القرآن، لرد هذه التهمة عن الرسول ﴿فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ وهذا ما يشير إلى وجود هذه الفئة من الناس وإلى اعتقاد العرب بهم. لكن الكهانة كما يذكر جرجي زيدان[2]، هي من العلوم الدخيلة على العرب، ويرجح أنهم أخذوها إمّا عن الشعوب المجاورة لهم وخصوصاً الكلدانيين الماهرين بعلم النجوم، وإمّا عن اليهود الذين انتشروا في الجزيرة العربية على أثر خراب أورشليم.

ووردت هذه اللفظة في الحديث الشريف «**من أتى عرّافاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد**»[3]. فالتنبؤ بالغيب وادعاء معرفة الأسرار[4] جميعها أمور اعتقد بها العرب، وكذبها الله ورسوله.

وقد انتشر الكهان في جميع شبه الجزيرة العربية، وقد عرفنا سابقاً كيف أن عمرو بن لحي، وهو أهم من نشر عبادة الأصنام بين العرب، لُقّب بالكاهن. وهناك أيضاً كهنة مشهورون نذكر منهم طريفة كاهنة اليمن التي تنبّأت بخراب سد مأرب، وسلمى وعفيراء الحميريتين وزبراء الحضرمية وزرقاء اليمامة[1].

---

(١) مجلة المشرق عدد ٣٦، ص ٩.
(٢) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مكتبة الحياة، بيروت، ج ١، ص ١٨١.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٣، ص ٣٦٣.
(٤) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٥) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٨٣.

وكذلك سمّوا العرافين بأسماء قبائلهم ومواضعهم فقالوا: كاهن قريش، وكاهن اليمن. ومن أشهر الكهنة:

ـ **شق وسطيح:**

يبدو من الأخبار أنّ هذين الكاهنين كانا في اليمن، وهما اللذان فسرا لملك اليمن رؤياه واتفقا بالتفسير على انفراد، وإن اختلفا في فقراتهما المسجّعة[1].

أمّا «شق» فقد سمّي كذلك لأنه ولد شقاً واحداً، وكان شقَّ إنسان بيد ورجل وعين[2].

أمّا سطيح، فيقول عنه الألوسي أنه كان يُدرَج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلاّ الجمجمة[3].

ويروى عن هذين الكاهنين أخبار كثيرة، منها رؤيا «تبع الحميري»، وما فسراه له، وكذلك خبر سطيح في رؤيا «الموبذان» (وهو من ملوك حمير) وارتجاح الإيوان.

وقد وردت أخبار هذين الكاهنين في كتب الرواة والإخباريين، كإبن هشام والطبري والمسعودي والدينوري والقزويني والدميري... وغيرهم[4].

ومما يروى عن ابن إسحق، في كيفية احتكام العرب حين يتخاصمون، أنّ رؤيا عبد المطلب بحفر زمزم وبدئه العمل به ومخاصمة قريش له: «اجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هُذيْم؛ قال: نعم. وكانت هذه الكاهنة بأشراف الشام فركبوا إليها[5]. وهناك أيضاً خبر النذر الذي

---

(١) ابن هشام، السيرة، ص ٩.

(٢) راجع محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٣٣.

(٣) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٣٣.

(٥) ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ١٤٤.

أراد أن يوفيه عبد المطلب لأساف ونائلة، وذلك بتقديم ابنه ضحية لهما، وقد مرّ معنا ذكره سابقاً.

أمّا العرافة فهي أخت الكهانة وإن كان البعض يرى أنها مختصة بالأمور الماضية، وقد حدّدها طاش كبرى زادة بقوله: «وهي الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية بمناسبة بينهما أو مشابهة خفية. أو ارتباط بينهما إما لكونهما معلولي أمر واحد أو لكون ما في الحال علة لما في الاستقبال بشرط أن يكون الارتباط بينهما خفياً لا يطلع عليه إلا الأفراد إمّا بتجارب شاهدوها في أمثالها أو بحالة مودعة في نفوسهم عند الفطرة بحيث يغلب على طالعهم سهم الغيث»[1].

ومن العرّافين الذين ذكروا في كتب الرواة والمؤرخين، عرّاف اليمامة وهو رباح بن عجلة:

فقلت لعرّاف اليمامة حكمه — وعراف نجد إن هما شفياني
فقالوا شفاك الله والله ما لنا — بما حملت منك الضلوع يدان

وكذلك عرّاف نجد الأبلق الأسدي[2]، وعرّاف هذيل. وبالإضافة إلى علم الكهانة والعرافة، كانت هناك علوم أخرى تلحق بها، كالعيافة والقيافة والريافة، والطيرة، وزجر الطير والغال، وتعبير الرؤيا، والطرق بالحصى وغيرها من المعتقدات والممارسات.

٧ ـ السحر:

يعتبر السحر من أقدم الممارسات والمعتقدات التي أقدم عليها الإنسان. وهو كان منتشراً بين عرب الجاهلية وله صلة وثيقة بالكهانة والعرافة. وقد ورد ذكره في القرآن **﴿وعجبوا إن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر**

---

(١) طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٩٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٨.

كذّاب، أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إنّ هذا لشيء عجاب﴾[1]. وقد وردت لفظة سحر وساحر، وسحرة أكثر من ستين مرة في القرآن.

وقد ورد أيضاً في أشعار الجاهليين:

فإن تسألينا فيم نحن؟ فإنّنا عصافير من هذا الأنام المسحّر[2]

وكان الجاهليُّ مولع بالغرائب، لذلك كان يعزو السحر لكل من يأتي بغريبة مدهشة، ونسبوه خصوصاً إلى الشياطين. واستعمل السحر في أمور كثيرة، منها بث الفرقة بين الأعداء، والتفرقة بين زوجين، أو لإشعال الكره بين حبيبين، أو لإضرام نار الغيرة، وأحياناً للجمع بين حبيبين، ومداواة العشاق بـ «السلوانة»[*] والسلوان. يقول اللحياني:

يا ليت أنّ لقلبي من يعلِّلُه أو ساقياً فسقاني عنك سلوانا[3]

وكان السحر معروفاً عند العرب، وفي ذلك يقول صاحب السيرة «أنه كان في إحدى قرى نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر»[4].

وكانت مداواة الناس تتم على يدي السحرة، وغالباً ما كانوا ينسبون الأمراض إلى وجود أرواح شريرة في جسم الإنسان، يحاول الساحر إخراجها منه. وكانوا يستعملون لأجل ذلك مواد عديدة منها البخور والملح والعظام والخرز. وكان هناك طقوس يقومون بها، وتمتمات يخاطبون بها قوى خفية (الجن). وكثيراً ما كانوا يدفنون ما يكتبونه من أوراق سحرية في المقابر لأنها أنسب الأمكنة للسحر.

---

(١) سورة ص، رقم ٣٨، آية ١٤.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٤، ص ٣٤٩.
(٣) نفس المصدر، مجلّد ١٤، ص ٣٩٥.
(٤) ابن هشام، السيرة، ١ ـ ٢، ص ٣٤.
(*) السلوانة، خرزة شفافة توضع في الرمل فتصبح سوداء، ثم تدق وتذاب بالماء، ويُسقى منها الإنسان فتسليه وتهيمه.

٨ ـ الإصابة بالعين:

كان الجاهلي يعتقد أنّ هناك قوى خفية تؤثر في الإنسان ومنها الإصابة بالعين، مما حمله على العمل لإيجاد وسيلة تغلب على تلك القوى، أو الحد من آثارها.

لأجل ذلك! استعملوا الرقى والتمائم والتعاويذ، فاهتدوا إلى تعليق سن ثعلب، أو سن هرة في أعناقهم وأعناق أولادهم[١].

ورأى الجاهلي أن عيون بعض الناس تصيب، وما تصيبه تهلكه فتجنبوا (العائن) و (المعيان) وابتعدوا عنه، كما رأوا أن الإصابة بالعين لا تقتصر على عيون الإنسان وحسب، فقد تصيب عيون الحيوان كذلك وخاصة الكلاب.

٩ ـ الطيرة:

إنّها معتقد مهم عند العرب الجاهليين، وهي تعني: زجر الطيور ومراقبة حركاتها، فإن تيامنت دلَّ ذلك على الفأل، وإن تياسرت دل على شؤم[٢]، ولكنها فيما بعد خصصت بالتشاؤم.

وللتطيُّر صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد الموت، والتي كانت سائدة عند معظم الشعوب القديمة. وكثيراً ما رُمِزَ إلى الفراشة بأنها روح إنسان ما، لذلك سرت عادة عدم أذيتها.

واعتبرت الطيرة والزجر واحد، فقيل لمن يزجر الطير (زاجر) لأنه «إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشده»[٣]. والعرب من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطيُّر ببارحها ونعيق غرابها[٤].

---

(١) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٧٤٦.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٤، ص ٥١٠.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ٤، ص ٥١٠.
(٤) نفس المصدر، نفس الصفحة.

ومن الألفاظ المستعملة في الزجر عند الجاهليين، السانح، أي الطير الذي يأتي من اليمين عند البعض ومن اليسار عند البعض الآخر، والبارح، هو الضد. وهم كانوا يتطيّرون بالسوانح والبوارح من الطير، وربما قعدوا نتيجة ذلك عن سفر أو غارة.

ومن الطيور التي تطيّر منها العرب، الغراب، الخفّاش، الهامة، البومة، الوطواط[1]. وسمّي الغراب بغراب البين لأنه يحتم بالفراق[2].

ويروى عن التطيُّر من الغراب، أن أميَّة بن أبي الصلت، كان يشرب مع أخوان له في قصر عيلان بالطائف، إذ حط غراب على شرفة القصر ونعب نعبة فقال أميّة «بغيك الكتكت» أي التراب وتشاءم منه، وقال لأصحابه: إنه يقول: إذا شربت الكأس التي بيدك متّ، وقد مات في مكانه، بعد نعيبه مرة أخرى[3].

أمّا البوم، فهي طير مشؤوم عند العرب الجاهليين ولا زالت إلى اليوم في كثير من اعتقادات الناس. وهي تطير في الليل وتصوِّت، والبعض يقول تنعق. ومن أنواع البوم، الصدى والهامة، وهذه الأخيرة هي رأس كل شيء من الروحانيين. والروحانيون كما يقول عنهم ابن شميل: هم الملائكة والجن التي ليس لها أجسام تُرى. ومما اعتقده العرب أن روح القتيل الذي لم يُدرك بثأره تصير هامة تصيح عند قبره: إسقوني، إسقوني! ومتى أدرك بثأره طارت. وفي هذا يقول ذو الأصبع العدواني:

يــا عمـــرُو إن لا تـــدع شتمـــي ومنقصتـــي
أضـــربْــك حتـــى تقــول الهـــامــة إسقــونـــي[4]

وفي الحديث الشريف عن الرسول: «**لا عَدْوَ ولا هامَةَ ولا صَفَرَ**»[5].

---

(١) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٧٩١.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٣، ص ٦٣.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ٣، ص ١٩٢.
(٤) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٢، ص ٦٢٤.
(٥) نفس المصدر، نفس الصفحة.

أما الصدى فهو الطائر الذي يخرج من هامة الميت[1]، وقد نهى الإسلام عن هذا الاعتقاد. أنشد أبو عبيدة في ذكر الصدى والهام:

سُلِّط الموت والمنون عليهم فلهُم في صدى المقابر هامُ[2]

ويبدو من كل ما تقدم، أن العرب آمنت بتلبس الأرواح في الطيور، شريرة كانت أم خيّرة، فتفاءلوا ببعضها وتشاءموا من البعض الآخر.

٩ ـ عبادة ظواهر الطبيعة:

ومن الظواهر الطبيعية التي أثرت في العرب الجاهليين، وجعلتهم يعتقدون بها ويعبدونها، ظاهرة البرق. وقد سمّي منهم بنو عدي، ببارق لأنهم تبعوا البرق[3]. وكان المطر إذا امتنع تقدموا بأنواع الشعائر لاستنزاله، وخصوصاً صلاة الاستقصاء. ولا يمتنع أن ننسب إليهم أنهم جعلوا آلهة للمطر، استجدوها إذا أمسكت السماء وأجدبت الأرض، وربما كان ذلك الإله هو ما سمّي بقوس قزح. فقد قيل في الإسلام إنّ قزح اسم للشيطان ولذلك لا يُستحسن إضافته إلى قوس، لنقول قوس قزح، بل يستحسن أن نقول قوس الله. ويُفهم من كلام ياقوت، في معجم البلدان، أنّ قزح كان اسماً يطلق على جبل قرب المزدلفة بالحجاز. والفيروز أبادي يعتبر أن قزح اسم ملك موكل بالسحاب. فليس إذن مستبعداً أن يكون هناك إله للعواصف والأمطار، عبده العرب واعتقدوا به.

وكانت قريش توقد النار في جبل المزدلفة[4]، وربما كانت هي نيران الإله قزح المقدّسة. ولم تكن عبادة النار مجهولة عند العرب، فقد عبدها بعضهم نقلاً عن الفرس والمجوس خصوصاً. وقد سبق وتكلمنا عن المجوسية وانتشارها بين القبائل العربية.

---

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) نفس المصدر، مجلّد ١٢، ص ٦٢٥.

(٣) راجع محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٧.

(٤) راجع محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٧.

وقد رمزت النار عند العرب إلى عدة أمور منها:

ـ نار الاستسقاء:

كانوا يعلقون في أذناب البقر بعض أنواع النباتات ثم يشعلونها ويصعدون إلى جبل وعر حيث يأخذون بالتضرع والصلاة لأجل استجلاب الغيث.

ـ نار التحالف:

وكانوا يطرحون الكبريت فيها، ويوقدونها حين يعقدون تحالفاً. وعندما يوقدون النار يقتربون منها حتى تكاد تحرقهم. وهم عددوا منافع النار ودعوا على الذي ينقض العهد بحرمان تلك المنافع. وهم يتصافحون عندها ويقولون: الدم الدم والهدم الهدم، ومعناه دماؤنا دماؤكم، وهدمنا هدمكم... وفي ذلك يروى عن الرسول، حين عقد الحلف مع الأنصار، فقال: الدم الدم، والهدم الهدم.

وكانوا يسمون الرجل القيم بأمر تلك النار «المهول»، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيديهم بالدم.

ـ نار الحرتين:

أمّا نار الحرتين فهي أشهر نار عند العرب، وأكثرها تعبيراً عن الخرافات والأساطير.

وكانت هذه النار في بلاد عبس. وقد زعموا أنه كان يخرج منها عنق فسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلاّ أحرقته.. إلى أن كان من أمر خالد بن سنان ما كان حيث أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً وخرج بهم نحوها، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير، وأحاط بهم فقالوا: هلكت والله أشياخ بني عبس آخر الدهر. فقال خالد، كلا! وجعل يضرب ذلك العنق ويقول «بدّاً بدّاً، كل هدي الله يؤدي! أنا عبد الله خالد بن سنان» فما زال يضربه حتى رجع وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى

قليب، فانساب فيه فدخل عليه خالد، فقال ابن عم له: لا أرى خالداً يخرج إليكم أبداً. . . فخرج خالد ينطف عرقاً[1]!!

أمّا ياقوت فيذكر عن خرافة خالد هذا، أن بعض البربر النازلين بمصر زعموا أنّ خالداً هذا كان نبياً، وكانوا ينزلون بالفسطاط بمصر على كعب بن يسار بن ضبة العبسي، ويعظمونه زاعمين أن أباه هو خالد ابن سنان المذكور الذي بُعِثَ إليهم[2].

أما في اليمن فقد كانت هناك نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تُضِر بالمظلوم[3]. ولا حاجة بنا للعودة إلى الحديث عن الصنم الشهير المحرّق ولا عن الرواية التي تنسب لقب المحرّق إلى أحد ملوك العرب وهو عمرو بن هند، الذي يُنسب إليه إحراقِ اليمامة، وإحراق مئة رجل من حنظلة، وحفر أخدود وإضرام النار فيه ورمي أولئك المساكين. لقد أوردنا ذلك سابقاً، فيرجى العودة إليها للاستزادة.

ـ النار التي كانت تعبدها حمير:

يُروى في هذا الإطار قصة أحد ملوك اليمن «تبع» عندما عاد بعد حرب خاضها، وقد اعتنق اليهودية، وكان معه حبران من قريظة، فأبى عليه أهل اليمن الدخول فيما دخل فيه، حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن.

قال ابن هشام: «وأن تبعاً لما دخل اليمن حالت حمير بينه وبينها، وقالوا له: لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا. قال: إنه خير من دينكم، فقالوا له: حاكمنا إلى النار، قال: نعم. وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم شيئاً، فخرج قولهم

---

(١) محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١١٩.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٣.

(٣) ابن هشام، السيرة، ص ١٧.

بأوثانهم وما يتقربون به وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلدين بها حتى عقدوا للنار عند مخرجها، فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فأمرهم من حضر بالصبر وصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير. وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما، فاتفقت عند ذلك حمير على دينه، فمن هناك كان أصل دين اليهودية باليمن. وقد حدثني محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير اتبعوا النار ليردوها وقالوا: من ردها فهو أولى بالحق فدنا منها رجال حمير ليردوها فلم يقدروا ودنت منهم لتأكلهم ولم يستطيعوا ردها، فدنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وهي تنكص إلى مخرجها الذي خرجت منه. فرجعت عند ذلك حمير إلى دين الحبرين والله أعلم أي ذلك كان»[1].

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير، منشورات وتحقيق مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الطبعة الثانية ١٩٧٩، ص ٣٠٨.

الفصل الثالث

المراكز الدينية

١ ـ المدن ٢ ـ المقامات ٣ ـ الطقوس والشعائر

١ ـ أهم المدن الدينية:

أ ـ مكة: من أهم المواضع الدينية عند العرب قبل الإسلام وبعده.

ـ **قبل الإسلام**: تقع مدينة مكة في قلب منطقة الحجاز ذات الأهمية الاقتصادية والدينية في شبه الجزيرة العربية. فقد كانت الحجاز جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط، باليمن والحبشة والصومال وبلاد الهند. وكان لذلك أعظم الأثر في قيام ثغور تجارية، تعتبر محطات مهمة. هذا من الناحية الاقتصادية، أما من الناحية الدينية، فقد كانت ذات أهمية قصوى، إذ فيها تلاقت جميع الأديان الوثنية إلى جانب اليهودية والنصرانية، وفيها ظهر الإسلام فيما بعد.

ومن أهم مدن هذه المنطقة، مكة، التي يذهب البعض إلى أن طينة آدم قد جُبلت من ترابها[1]. ويحدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها: دحنى، وقيل إن اسمها دجنى. وهي أرضٌ خلق منها آدم عليه السلام وهذه الأرض بين مكة والطائف[2]. وفي الحديث الذي رواه أحمد من صحيح مسلم قال حدثنا جرير عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «أن

(١) فؤاد علي رضا، أم القرى، مكة المكرمة.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة..»[1] والنعمان جبل بقرب عرفة، ويقال أيضاً النعمان السحاب الذي ركد فوقه لعلوه.

وهكذا نتبين أهمية مكة من خلال أهمية عرفة، ونتبين أيضاً كيفية بناء بيوت الله من قبل آدم. ذكر ابن جرير عن ابن عباس أن الله قال: يا آدم: إن لي حرماً بحيال عرشي، فانطلق فابن لي فيه بيتاً، فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي». وأرسل الله له ملكاً فعرّفه مكانه وعلّمه المناسك. وذُكِر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك[2].

ومما تنسب إليه مكة في مرحلة لاحقة، هو النبي إدريس، حيث يروى عنه أنه أقام قواعد للبيت في مكة[3].

ويعتبر صاحب كتاب أم القرى، أنّ مكة لم تُبْنَ كقرية ثابتة من قرى العرب إلا بعد سيدنا إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنزلت «جرهم» عندهم. وكانت رحال إسماعيل عندما جاء إلى مكة قد حطت في جبال فاران، بالقرب من مكة.

واختلف الأخباريون في اسم مكة وتفسيره، وجهدوا في ذلك كثيراً. فمنهم من اعتبره مشتق من المثك، أي أمتك الفصيل ضرع أمه إذا مصّه مصاً شديداً. ومنهم من اعتبره من النمك، أي نمك مكاً، بصغر صغير المكاء حول الكعبة، والمكّاء طائر يأوي الرياض. ومنهم من اعتبرها كذلك لأنها واقعة بين جبلين مرتفعين وهي في هبطة بمنزلة المكوك. ومنهم من رأى أنّها سميت مكة، من ملكّ الثدي أي مصّة وذلك لقلة مائها. وقيل إنها تمك الذنوب أي تذهب بها. وورد في القرآن اسم آخر لها هو بكة. ووردت لها تسميات أخرى، منها أم

---

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢.

القرى، والبيت العتيق، والقاس. . . وغيرها[1].

وموقع مكة بين جبلين، جبل أبو قبيس شرقاً، وجبل قعيقان غرباً، وهي تقوم في بطن وادي يعرف ببطن مكة وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي دائرة حول الكعبة[2].

وكانت المناطق المنخفضة من ساحة مكة تسمّى البطحاء، وكل ما نزل عن الحرم يسمونه المسفلة وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة. وحول الحرم كان يسكن بني قصي.

وتعاقب على النزول في مكة والسيطرة عليها وعلى الحجاز تالياً، العمالقة، وخلفهم بنو جرهم القحطانية، وبعدهم وفدت خزاعة بعد سيل العرم وطردت الجراهمة وتولت أمر البيت، ووضع عمرو بن لحي الخزاعي يده على الحرم، فأبدل دين إبراهيم بعبادة الأوثان التي جلبها معه من البلقاء بالشام. ثم تمكن قصي بن كلاب بن مرة من السيادة في مكة وانتزاع ولاية البيت من خزاعة، وهو الذي بنى دارته في قلب مكة ودعيت فيما بعد بدار الندوة حيث كانت قريش تتشاور في أمورها.

ومما لا شك فيه أن مكة كانت محجة للعرب يغدونها من كل صوب في مواسم معينة كل سنة، إمّا للتجارة، أو لتأدية مراسم دينية معيّنة. وكانت لهذه المواسم أسباب هامة في سيادة أهل الحجاز، وخاصة قبيلة قريش في كثير من الأمور، كانتشار لغتها وعاداتها ومناسكها التي كانت تقدمها إلى أصنامها وحجارتها المؤلهة. ولما رأت العرب أصنام وآلهة قريش، جعلت كل جماعة منها صنماً لها تعبده.

وأهم المناسبات التي كانت تجري في مكة هي مناسبة الأعياد، حيث

(١) راجع في كل هذا ما أورده السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٨٧.

كانت كل قبيلة تحتفل بعيد يخصها إمّا لنصرتها على عدو أو لظفرها بخصم. وكانت هناك بعض الاحتفالات والأعياد المكانية، فكانت «مناة» لأهل المدينة، واللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة. ولهذه الأماكن كانت تشد الرحال فيقصدها العرب ويعظمونها كتعظيم الكعبة التي بقيت عندهم في المقام الأول بين جميع المقامات.

ب ـ الطائف:

وهي المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد مكة. ويُعتقد أن سبب التسمية تعود إلى الطواف حول الصنم الآله «اللات»، لذلك سُمّيت بالطائف. وبعضهم اعتبر أن التسمية جاءت من أن أحدهم أقام في موضع بني ثقيف طوفاً مثل الحائط حتى لا يصل إلى ثقيف أحد من العرب، ويكون هذا الطوف بمثابة الحصن، لذلك سمّي الموضع بالطائف. وكانت الطائف تسمّى في القديم باسم «وج» وهو اسم وادي وج الذي ينسب إلى وج بن عبد الحي من العماليق.

تقع الطائف على ظهر جبل غزوان من جبال السراة، مناخها معتدل، وهي طيّبة الهواء شمالية، باردة المياه، وكانت مصيفاً لأهل مكة. وكان ينزل بالطائف بالإضافة إلى بني ثقيف، جماعة من حمْير وقوم من قريش، كما سكنها جماعة من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة(١).

كانت الطائف المركز الديني الثاني للعرب، فقد كان فيها بيتاً لثقيف يسترونه بالثياب ويطوفون حوله وينحرون له، وكانوا يسمونه الربة. هذا البيت كان يضم صخرة مربعة تُعرف بـ«اللات»، وكان سدنتها من ثقيف وهم بنو عتاب بن مالك.

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها(٢).

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، مجلّد ٤، ص ١٠.

(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٦.

ج - يثرب:

هي مدينة قديمة، ورد ذكرها في الكتابات المعينية، وكانت من المواضع التي أقامت جماعات من معين، ثم آل أمرها إلى السبئيين. وقد ذكر الأخباريون روايات متعددة[١] في أصل تسميتها بهذا الاسم. لكن من المؤكد أن تسميتها بالمدينة جاء بعد هجرة الرسول إليها، وأضاف الأخباريون إلى اسم يثرب أو المدينة تسعة وعشرون إسماً بعد هجرة الرسول إليها.

وتقع يثرب على بعد ٥٠٠ كلم شمالي مكة في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات، كثيرة المياه والشجر والدوحات، وأقرب الجبال إليها هو جبل أُحُدُ. وتكثر الوديان التي تحيط بها على مسافات متفاوتة، وفيها أيضاً ثلاث حراث وهي حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب، وحرة قباء في الجنوب.

ويزعم الرواة أن أول من نزل بيثرب هم العماليق، وكان يسكن المدينة منهم بنو هف، وسعد بن هفان، وبنو مطرويل. ثم نزل اليهود بيثرب حيث طردوا العماليق منها على حسب إحدى الروايات. ولكن هناك روايات أخرى متعددة، منها رواية بني قريظة من أن علماء اليهود كانوا يجدون في التوراة صفة النبي وأنه سينزل في بلد فيه نخل بين حرتين، فأقبلوا يطلبون هذا المكان، وعندما وجدوه نزلوا فيه[٢]. ونزل بعد سيل العرم، في يثرب، قبائل الأوس والخزرج.

وكانت يثرب في الجاهلية تضم كتلتين من السكان: العرب واليهود.

فاليهود فروا إلى شبه الجزيرة العربية بعد قيام الرومان بتشتيتهم في أورشليم وطردهم منها وتهديم معبدهم على يد الأمبراطور طيطس ٧٠ م، ونزلوا في أخصب الأماكن من بقاع الحجاز: يثرب، فدك، خيبر، وادي

(١) راجع السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ١٨٢

القرى، تيماء، كما نزل بعضهم اليمن وتمكن من تهويد جماعة من أهلها[1]. وكان اليهود يعيشون في يثرب حتى قبل وفود اليهود الجدد إليهم، خصوصاً أولئك الذين ذكرنا أنهم قاتلوا العماليق.

أما العرب الذين سكنوا يثرب، فقد ذكرنا أولاً العماليق الذين قضى عليهم اليهود الأوائل، وسكنها أيضاً بطون من اليمن من بلى ومن سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان وبقايا من العماليق. ثم جاء الأوس والخزرج ونزلوا يثرب وتجاوروا مع اليهود وعقدوا معهم أحلافاً.

وبذلك تعتبر يثرب مركزاً مهماً من مراكز اليهودية في شبه الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام.

د ـ الحيرة:

هي مدينة قديمة البنيان، يعود إنشاؤها إلى عام ١٣٢ م[1]، وقد ورد اسم الحيرة «حيرتا» في أحد النصوص، حيث يُستدَل منه أنها أقيمت في عصر سابق للعصر الساساني. وبعض الأخباريين يُرجع إنشاءها إلى بختنصر مؤسس الأنبار، وبعضهم يقول إنها من بناء تبع الأكبر[3].

وتقع الحيرة جنوبي الكوفة على بعد نحو ثلاثة أميال وعلى موضع يقال له النجف.

وقد اشتهرت الحيرة برقة هوائها وصفاء جوها وعذوبة مائها. وكان سكان الحيرة ثلاثة طوائف: عرب الضاحية والعباد والأحلاف.

أما عرب الضاحية فهم الذين سكنوا الخيام وبيوت الشعر والوبر ولم يسكنوا بيوت المدَر في الحيرة. أما العباد فهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا بيوتاً

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ١٧٨.

(٢) نفس المصدر، ج ٤، ص ٦.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٣٢٩.

فيها، وأنشأوا قصوراً، وهم في الحقيقة لفيف من النصارى الذين تجمعوا من عدة قبائل. أما الأحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ولم يكونوا من تنوخ الوبر ولا من العباد[1].

وإلى جانب هذه الطوائف الثلاث، كان يقيم بالحيرة جماعة من النبط العراقيين وهم بقايا أهل العراق القدامى من الكلدانيين والبابليين والآراميين.

وأهم اعتقاد ديني انتشر في الحيرة قبل الإسلام، هو المسيحية على المذهب النسطوري. وفي عهد النعمان بن المنذر بدأت جذور المسيحية تنتشر أكثر فأكثر، حتى أصبحت الحيرة فيما بعد أحد أكبر مراكز النصرانية في شبه الجزيرة العربية. ولقد أوردنا في حديثنا عن المناذرة ومملكتهم، ما أنشأه هؤلاء من أديرة وكنائس خصوصاً بعد دخولهم في النصرانية.

وإلى جانب النصرانية الغالبة في الحيرة، كان هناك عبدة الأصنام، والصابئة، والمجوس، وبعض اليهود.

ومن أصنام الحيرة، صنمان يُعرفان بالضيزنين، وهناك صنم يقال له «سبد» كانوا يحلفون به ويقولون «حق سبد». وكان منهم من يعبد العزى ويتقرب إليها بالذبائح. وعرفت الحيرة عبادة القمر، وعرفت أيضاً الزندقة أي التنوية، ومنها انتقلت إلى قريش، وكذلك سادت المزدكية في عصر قباذ أحد ملوكها.

هـ ـ مدن أخرى:

نذكر منها نجران وصنعاء. هاتان المدينتان كانتا بالإضافة إلى الحيرة والأنبار من أهم المراكز النصرانية. وفي نجران أنشأ الأحباش بعد احتلالهم اليمن ثانية، كنيسة عظيمة لقّبوها فيما بعد بـ «كعبة نجران». أما صنعاء فقد بنى فيها أبرهة

---

(١) تاريخ الطبري، ص ٨٢٢.

كنيسة سمّاها القليس، ونصب فيها الصلبان من الذهب والفضة ومنابر من العاج والإبنوس[1].

٢ ـ المقامات والبيوت الدينية:

أ ـ الكعبة:

يقول ياقوت: «إن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحى الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى»[2]. وربما رجعوا بخلق مكة إلى خلق السموات فزعموا أنه: «وجد على حجر فيها كتاب فيه أنا الله رب مكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر»[3]. لقد بنتها الملائكة لأول مرة قبل آدم، لا قبل خلق الأرض بأربعين عاماً؛ وإذا شئت فبألفي عام»[4].

ويقولون إن الله أمر الملائكة أن يبنوا له بيتاً في الأرض يعوذ به من سخط عليه من بني آدم، فبنوه حيال البيت المعمور ـ الذي هو تحت العرش ـ وعلى قدره ومثاله. وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور[5]. وضمن هذا الإطار تفهم الآية ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين**﴾[6].

وكانت الملائكة تحج إلى البيت قبل آدم، وعندما أهبط إلى الأرض كان عزاؤه خيمة من خيام الجنة وضعها له بمكة في موضع الكعبة، وأنزل لها الركن كرسياً لآدم. ومن أجل الملائكة ومقامهم حرّم الحرم حتى اليوم ووضعت

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٣٩٥.
(٢) نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٧٩.
(٣) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٦١٩.
(٤) النهروالي، الإعلام بأعلام البيت الحرام، ص ٢٣ ـ ٢٥. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٢٧.
(٥) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٢٧٩.
(٦) سورة ٣، آية ٩٠.

أعلامه حيث كان مقام الملائكة. وقد حرم الله على حواء دخول الحرم لخطيئتها في الجنة. حتى إذا أرادها آدم خرج بها من الحرم كله[1].

ثم بنى آدم أساس الكعبة بعد تهدم ما بنته الملائكة، وبذلك يكون أول من أسس البيت وطاف به. ثم تروى أخبار عن الطوفان، وأن الكعبة لم تتأثر به وأن الله رفعها إليه بسبعين ألف ملك، وأن الكعبة بقيت معلقة في الهواء إلى السماء. كل هذه الروايات وردت في أخبار النهروالي والأزرقي وغيرهم، وكأنها تقترب من منحى ونسق الأساطير.

ويعتبر ياقوت أن الناس كانوا يحجون إلى مكة، وإلى موضع البيت قبل إبراهيم حتى بوأ الله له مكانه، بعد أن أوحى إليه بناءه.

وإمعاناً في تقديس المكان وحتى حجارته، جُعِلتْ هذه الحجارة من عند الله، حيث كانت الملائكة تأتي إلى إبراهيم بالحجارة من تلك الجبال السبعة التي جعلها إبراهيم أساس الكعبة[2]. ثم انهدم ما بناه إبراهيم، وأعاد بناءه العمالقة، ثم انهدم ما بناه العمالقة، فأعادت جرهم البناء، إلى أن كان زمن قصي وولايته أمر البيت، فجمع نفقته وهدم الكعبة ثم بناها بنياناً لم يبنَ مثله أحد من قبل.

وقيل إن قريش أعادت بناء الكعبة من جديد بعد أن احترقت من جراء جمرها بالبخور من قبل امرأة. كان ذلك قبل نزول الوحي على الرسول بخمس سنوات تقريباً. ويروى في هذا المجال أن سفينة غرقت وقذفها البحر إلى الشاطىء، فأخذوا خشبها، وساعدهم في ذلك نجار قبطي كان في مكة. وكثرت الروايات في كيفية هدمها وما صادفهم في ذلك، وفي كيفية إعادة بنائها وكيف ساهمت القبائل كلها في ذلك، «فكانت كل قبيلة تجمع على حدة، ثم

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٨ ـ ٩. وياقوت، معجم البلدان، مجلّد ٤، ص ٢٨١.
(٢) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٢٨١.

بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى»[1].

ب ـ الحجر الأسود ومقام إبراهيم:

يُعتبر هذا الحجر مقدّساً، وقد اختصمت القبائل القرشية على وضعه مكانه. وإذا عدنا إلى رواية هذا الحجر في أيام إبراهيم وإسماعيل، نرى ما خُلع عليه من قداسة، كون إسماعيل كان يأتي والده بحجر، فإذا بوالده يقول له إنه حصل عليه من السماء، وكان هو الحجر الأسود آخر حجر وضع في مقام حرم الكعبة.

ويرى المستشرق ولهوزن أن الكعبة إنما تدين بقداستها لهذا الركن، ويعقب ڤنسنك على ذلك بقوله إن ذلك ممكن لأن ديانة العرب القدماء، إنما كانت قائمة بجوهرها على عبادة الحجارة[2]. ومن المعلوم أن الحجر الأسود لم يكن الحجر المقدس الوحيد في الكعبة، فقد وجد بها أصنام وأوثان وأنصاب كثيرة، بينها «٣٦٠» تمثالاً، كما أن مقام إبراهيم كان منذ القدم حجراً مقدساً[3].

وربما كان الحجر الأسود، الذي يصلى عنده، من بقايا الأحجار البركانية السوداء، وقد تخيله الناس أنه مرسل من السماء، وربما كان أيضاً من بقايا نيازك متساقطة، ولأجل ذلك قدّسه العرب الوثنيون وعبدوه، كما قدسوا وعبدوا النجوم[4].

وقد ظلّ هذا الحجر مقدساً حتى في الإسلام، واعتبر الركن والمصلى في

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) Enc. of. Islam، مجلد ٢، ص ٥٩٠، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٣٠.

(٣) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٤) الأقرب إلى الصحة، أن يكون من بقايا أحجار بركانية.

الكعبة «ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما، ولو لم يطمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب. فالحجر الأسود، ومقام إبراهيم عليه السلام، جوهرتان من جواهر السماء والجنة، ولولا ما مسهما من أهل الشرك، ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله[1].

وعند بعض الأخباريين، أن الحجارة المقدّسة ثلاثة: «ثلاثة أحجار من الجنة: الحجر الأسود، والمقام، وحجر بني إسرائيل»[2].

والحجر الأسود كما يذكر ياقوت، بمقدار رأس الإنسان، والمقام أهميته وقداسته إنما هي نابعة عن صلته بإبراهيم. وقيل فيه أنه هو الحجر الذي قام فيه إبراهيم حين رفع بناء البيت، وقيل أيضاً هو الحجر الذي وقف عليه يوم أذن في الناس بالحج. . . أما ذرعه فمقدار ذراع، وهو على ما يذكر ياقوت في حوض مربع حوله رصاص. ومن مقداره يظهر أنه أكبر من الركن (الحجر الأسود) وهو مثله حجر أسود.

ويبدو أن الأهمية الأولى تعود للركن وليس للمقام، أي للحجر الأسود، فمن لم يدرك بيعة النبي وتمسح به فقد بايع الله ورسوله. هذا هو الحجر الأسود الذي نزل من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا البشر، أو اسودّ كما يقول البعض من لمس الحيَّض في الجاهلية[3].

ج ـ مقامات أخرى:

لقد كان للعرب مقامات وأركان وكعبات أخرى غير تلك التي كانت موجودة في مكة، وهم حجوا إليها وطافوا حولها ونحروا عندها. ويعدد البعض

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٢٠٢.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٠٠، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٣٣.

منهم مثلاً: اللات، وذا الخلصة، وكعبة نجران، وكعبة شداد الأيادي، وكعبة غطفان. وفي صفة جزيرة العرب، يقول الهمذاني: «مواضع العبادة مكة، وإيلياء بأعلى نخلة، وذو الخلصة بناحية تبالة، وكعبة نجران، وريام في بلد همذان وكنيسة الباغوتة بالحيرة»[1]. وهناك أيضاً مقام العزى ومناة ورضاء. كما يذكر ابن الكلبي كنيسة بناها أبرهة الأشرم (الحبشي) على باب صنعاء محاولاً صرف العرب عن مكة إليها[2].

أما كعبة نجران، فقد كانت بعد دخول النصرانية، كنيسة أو شبه كنيسة. وهي بُنيت لكي تضاهي الكعبة، وقد جعلتها الروايات قبة من آدم، ومن ثلاثمئة جلد، إذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قُضيت[3].

أما ذو الخلصة، فقد ذكر ياقوت أنه بيت أصنام بتبالة قدّسه عدد كبير من القبائل العربية الجنوبية، ودعوه بالكعبة اليمانية مضاهاة للكعبة الشآمية وهي البيت الحرام[4].

أما رئام فإنه بيت كان متنسكاً ينسك عنده ويحج إليه، وهو في رأس جبل أقوى من بلد همذان. يقول ابن إسحق: وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده، ويكلمون منه[5].

وهناك أيضاً بيت ثقيف في الطائف وهو للات، وكانت تضاهي به قريش وكعبتها وأصنامها.

ومن أشهر الأماكن المقدسة القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر في قصيدة

---

(١) منقولة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٣٤.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٤٦ ـ ٤٧.
(٣) الألوسي، ج ٣، ص ٣٩٤. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٣٥.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٤٦١.
(٥) ابن هشام، السيرة، ص ١٧ ـ ١٨.

له مع بارق والخورنق والسدير، وهو يقع شمالي شرقي شبه الجزيرة العربية. وكان لأياد التي كانت تنزل سنداد النهر الواقع ما بين الحيرة إلى الأبلة، واسم هذا القصر ذو الشرفات، وقد دعي أيضاً بذي الكعبات.

ومن البيوت المعروفة للعبادة، «رضى» أو «رضاء»، وأيضاً «الفلس» لقبائل طيء عند جبلي «سلمى» و «أجأ»، و «السعيدة» وكان بيتاً تحجه العرب وسدنته بنو عجلان، وكانت قبائل الأزد تعبده.

٣ ـ المهام الدينية:

نظّم العرب شؤون عبادتهم، وجعلوا للبيوت الدينية نوعاً من التنظيم، حيث أوكلوا مهمات لأشخاص يقومون برعاية البيت الديني، يخدمون من خلالها أصنامهم وآلهتهم. من الأعمال التي كانوا يقومون بها:

أ ـ السدنة:

وهي في اللغة جمع سادن. والسادن هو الذي يخدم الصنم ويرعاه. وهذا منصب ديني له أهميّة عند العرب، وقد تسمَّوا أحياناً بأسماء الأماكن التي يقومون على خدمتها وسدانتها، فكان بينهم عبد الكعبة، وعبد البيت، وعبد الدار، وعبد مناف، وعبد اللات، . . . وتشبه أن تكون هذه المهمَّة، كمهمة رؤساء الدين اليوم في مختلف الطوائف الدينية من نصرانية ويهودية وإسلامية، كأن نقول راعي أبرشية، أو كاهن رعية، أو مطران، أو حاخام، أو شيخ المسجد.

وكان للأصنام سدنتها، يقومون على خدمتها، يجعلون من أنفسهم واسطة بين الناس والإله، وتختلف أهميتهم، باختلاف أهمية الصنم الذي يقومون بخدمته، فالمكانة التي كان يتمتع بها الصنم «العزى» و «اللات» كانت تنسحب أيضاً على المكانة التي يتمتع بها سَدَنة هذين الصنمين.

وسدنة الأصنام في الجاهلية كانوا كثيرين، ولم يقتصر الأمر على مراكز الآلهة الثابتة، بل تعداها إلى الآلهة المحمولة والمتنقلة حيث كان لها سدنتها

يقومون بخدمتها ورعايتها ومساعدة الناس على القيام بالطقوس والمناسك. ونظراً لشرف هذه المهمة، فقد تولاها أحياناً رؤساء القبائل أنفسهم. يقول الأب لامنس: «إن كثيراً من هؤلاء الأشخاص رؤساء الأسر، ذوي القباب الحمر، الساهرين على البيت، ويعني بيت الصنم أو الحجر المؤله، يتصفون بصفات اكليركية، إذ يحق لهم أن يتسموا باسم (الكاهن) أو (الحازر) أو (السادن) أو (الحاجب) وبعضهم باسم (الحاكم)[1].

ومنصب السدانة غالباً ما كان وراثياً، وأحياناً كان في عوائل لا تمت بنسب إلى القبيلة التي تمتلك الأراضي التي تحيط بمكان الإله[2]. ومن الأدلة على أن السدانة كانت وراثية، ما يقوله ابن الكلبي، بعد أن ذكر حمل عوف بن عذرة بن زيد اللات (وداً) إلى دومة الجندل: «وجعل عوف ابنه عامراً الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له. فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام»[3].

ومن العوائل التي توارثت سدنة أصنامها وآلهتها، بني بولان سدنة (الغلس) وبني شيبان سدنة (العزى)، وبنو عتاب بن ملك من ثقيف سدنة (اللات)، وبنو لحيان سدنة (سواع)، وبنو إمامة من باهلة سدنة (ذي الخلصة)، والخزاعي ابن عبد نهم من مزينة سادن (نهم). وقد أوردنا أسماء الكثير من السدنة عندما عرضنا لذكر أسماء أهم أصنام العرب في الفصل الثاني، من الباب الثاني. وإلى جانب السدنة وقريب منها في المهام، تقع مهمة الحجابة، كتولي خدمة الصنم وفتح باب بيته وإغلاقه وإرشاد الناس إلى المناسك وغيرها. ويفرقون بين السادن والحاجب بقولهم: «الحاجب يحجب وإذنه لغيره، أما

---

(١) مجلة المشرق، ص ٢٣٧، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧.

(٢) Enc. of. Religion، ص ٦٦٧. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤١.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٥٥.

السادن فيحجب وأذنه لنفسه»[1]. وهذا يعني أن السادن أهم من الحاجب، وإن كانت مهمتهما تتشابه في كثير من الأمور.

ب ـ السقاية:

وهي أن يقوم بعضهم بسقاية الحجاج الذين يأتون بيت الله (الكعبة) من كل جانب.

وتوزيع المياه على الناس الذين يتوافدون إلى الحج والطواف حول أي صنم من الأصنام وهي كثيرة أنذاك، ليُعدّ أمراً مهماً، ومهمة دينية في الوقت نفسه، وتولاها أحياناً أشراف من العرب، كبني هاشم الذين كانوا يسقون الناس في الكعبة.

ج ـ الأموال المحجرة:

وهي ما نسميه اليوم «الوقْفْ»، كأن تقتطع من أموالك وأملاكك جزءاً وتهبه، أو كما يقولون «وتقفه» لمزار ديني. فهناك أملاك وقف المسلمين والتي تعود إلى بيوتات الله «الجوامع»، وهناك أملاك الكنيسة، التي يهبها إليها الناس. وكذلك الأمر عند العرب في الجاهلية، فإن الهبات والأموال التي كانت تعطى للأصنام، كان لا بد لأحدهم من أن يقف عليها ويحميها. وكثيراً ما نسمع اليوم بما يُسمّى «حامي الوقف» حيث تكون من مهماته حماية أموال الوقف وممتلكاته، وهناك ما يسمى أيضاً لجان الوقف إن في المسيحية أو في الإسلام. هذه المهمة مارسها العرب في الجاهلية، واعتبرت من المهام الدينية، وهي كانت في قريش من خصائص «بنى سهم» الذين منهم «الحارث بن قيس» حامي الأموال المحجرة للكعبة. وكذا الأمر في كل بيت من بيوتات العبادة التابعة للأصنام الآلهة المنتشرة بين القبائل وفي مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية.

---

(١) الزبيدي، تاج العروس، مصر ١٣٠٦ هـ. مجلّد ٩، ص ٢٣٣. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤٠.

د ـ العمارة:

وهي منع التكلم في حرم البيت، بكلام سفيه أو قبيح، أو بصوت مرتفع. والمقصود بحرم البيت، أي البيت الذي يوجد فيه الإله الصنم. وكانت هذه المهمة في قريش، منوطة ببني هاشم الذين منهم العباس صاحبها. وكان في كل قبيلة، وفي بيت الصنم الذي تعبده «عمارة» أي وظيفة النهي عن السفاهات التي قد تحدث في داخل بيت الصنم، أثناء الحج إليه والطواف حوله.

هـ ـ الأيسار:

فهي الأزلام والقداح، وكانوا يضربون بها إذا أرادوا أن يتبينوا أمراً ما. وقد كانت هذه المهمّة في قريش، منوطة ببني أمية وصفوان بن أمية صاحبها. ولا بد من شرح ماذا نعني بالأزلام والقداح.

عندما كان العرب في الجاهلية يريدون القيام بأمر ما، كانوا يحاولون معرفة رأي الآلهة بما يقومون وذلك عن طريق الاستقسام بالأزلام، أو الضرب بالقداح.

مثل ذلك ما فعله امرىء القيس حينما استشار «ذا الخلصة» في أمر الغارة على بني أسد. كما الأمر مع عبد المطلب في قصة حفر بئر زمزم، والتضحية بابنه عند الكعبة.

والأقداح، أو القداح، والزناد والسهام والأقلام، والأزلام، تعطي معنى واحداً. فالقِداح هو السهم، الذي كانوا يضربونه، فإذا خرج ما هو مكتوب عليه فأل خير مالوا إلى أمرهم الذي جاءوا من أجله، وإذا خرج ما هو مكتوب عليه فأل شر، رجعوا عن هذا الأمر.

ويرى ابن قتيبة أن القِداح والأزلام أعواد تسوّى للاستسقام الذي هو من القسم أي النصيب. وهذه الأعواد متشابهة في أقدار الأجسام، وإنما تختلف بالعلامات والوسوم. قالوا: وليس يجوز أن تكون إلاّ كذلك لأنها إذا اختلفت

أمكنت الضارب الحيلة فيها[١].

وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح، مكتوب في أحدها: صريح، والآخر مُلْصَقٌ. فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هدية، ثم ضربوا بالقداح (السهام)، فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه، وإن خرج (ملصق) دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على الزواج وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه.. وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[٢].

وإلى هذا ذهب اليعقوبي في تاريخه، حيث يقول، قال ابن واضح: «وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل أمورها. وهي القداح. ولا يكون لها سفر ومقام، ولا نكاح ولا معرفة حال إلاّ رجعت إلى القداح. وكانت القداح سبعة... فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلى القداح فضربوا بها، ثم عملوا بما يخرج القداح لا يتعدونه ولا يجوزونه. وكان لهم أمناء على القداح لا يثقون بغيرهم»[٣] الأمناء على الأقداح ربما كانوا السدنة أو الحجّاب، أو آخرون. فغدا الضرب على الأقداح والاستقسام بالأزلام مهنة دينية يختص بها أناس دون آخرين.

وكان عدد القِداح وما يكتب عليها يختلف باختلاف الأغراض التي يضرب من أجلها. فأمام «هُبَل» كان هناك سبعة أقداح، وأمام «ذي الخلصة» كان هناك ثلاثة[٤]. وكذلك تختلف الكتابات والرموز الموجودة عليها، وإلى ذلك أشار ابن الكلبي واليعقوبي وكان بينهما خلاف في الرموز والكتابات الموجودة على الأقداح.

---

(١) ابن قتيبة، الميسر والقداح، ص ٨٧. مقتبسة عن محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤٦.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٨.
(٣) تاريخ اليعقوبي، مجلد ١، ص ٣٠٠.
(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٤٧.

وعند ابن قتيبة، أن الاستقسام بالأزلام كان لغرضين: الأول استشارة الصنم الإله بأمر من الأمور، «وكانوا إذا أرادوا الخروج إلى وجه ضربوا بالقداح، فإن القدح الآمر نفد لوجهه راجياً السلامة والصنع، وإذا خرج القدح الناهي أمسك عن الخروج خائفاً النكبة»[1]. أما الأمر الثاني، فكانوا يمارسونه عند الشدة والضيق، وهو ما يسمونه بالميسر. أما قداح هذا الضرب من الاستقسام، فعشرة متساوية منها سبعة ذوات خطوط وهي: الفذ والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل والمعلّى. وثلاثة أغفال لا خطوط لها وهي: السفيح، والمنيح، والوغد»[2]. وكان على كل قدح من السبعة علامة «حز» فعلى الفذ حز، وعلى التوأم حزان وهكذا... إلى سبعة على المعلّى. ولكل حز نصيب[3]. وأما الثلاثة التي لا نصيب لها، فليس عليها علامات، وإنما تجعل مع تلك السبعة ليكثر بها العدد، ولتؤمن بها حيلة الضارب[4].

وكانوا لا يضربون على الميسر بالقداح إلاّ في الشتاء عند جدب البلاد وتعذر الأقوات وقلب الزمان، لينعشوا بذلك الفقير والضرير[5]. وكانوا ييسرون على جزور يقسمونه أجزاء[6]. أو يضربون بالقداح على الإبل الصحاح فيجعلون مكان العُشر من أعشار الجزور بعيراً كاملاً[7].

والأمناء على القِداح كانت لهم أهمية قصوى ولا يمكن الوثوق بغيرهم،

---

(١) ابن قتيبة، رسالة الميسر والقداح، ص ٤٠، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤٣.

(٢) ابن قتيبة، الميسر والقداح، ص ٥٦. مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ١٤٣.

(٣) نفس المصدر، ص ٧٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٨٢.

(٥) نفس المصدر، ص ١٠٦.

(٦) نفس المصدر، ص ١١٣.

(٧) نفس المصدر، ص ١٢٣.

لذلك كان على الذين يستشيرون الإله الصنم أن يسترضوا هؤلاء الأمناء فيقدمون لهم الهدايا والأعطيات لقاء عملهم، يقول الأزرقي: «وكانوا إذا أرادوا أن يختتنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً، أوشكوا في نسب أحد ذهبوا به إلى هبل وبماية درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح»[1].

وكانت قريش قد اختلفت وتخاصمت أمام هبل، خصوصاً في مسألة الغزالين والأسياف والأدراع التي اكتشفها عبد المطلب في حفرة بئر زمزم حيث قالت قريش: «يا عبد المطلب، لنا معك في هذا شرك وحق. قال: لا، ولكن هلموا إلى أمر ينصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح. قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا: أنصَفْتَ. فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش. ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل. . . وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش[2].

ويروي ابن هشام في السيرة قصة تضحية عبد المطلب بابنه أمام هُبْل، وكيف افتدته قريش بعد استشارة عرّافة والضرب بالأقداح بمئة من الإبل خرجت أقداح هُبل عليها[3].

٤ ـ الطقوس والشعائر:

كانت للعربي في الجاهلية بعض الطقوس والشعائر التي يمارسها أمام البيوتات الدينية التي كان يقيمها. وكانت هناك مناسبات ثابتة تقام بها هذه الشعائر كما أن هناك طقوساً معيّنة كانت تقام في أوقات مختلفة وعند حدوث

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٧٤. ابن هشام، السيرة، ص ٩٧.
(٢) ابن هشام، السيرة، ١ ص ٩٤.
(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ١، ١١٩.

أمر طارىء. من المناسبات الثابتة عندهم الحج.

أ ـ الحج:

وهو أهم الشعائر الدينية التي كانوا يمارسونها في أوقات محدّدة. وإذا ما تتبعنا أخبار الرواة في هذه المسألة، لوجدنا أنّهم يعيدونها إلى أيّام إبراهيم، وكذلك القرآن الكريم فهو يرجعه إلى عهد إبراهيم: **﴿وأذّن في الحج بالناس يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾**[1].

وفي اللغة الحجُّ، القصد، حجَّ إلينا فلان أي قَدِمَ، وحجّه يحجه حجًّا، قصده[2].

ويقول ابن السكيت: ثم تُعُورِفَ استعماله في القصد إلى مكّة للنسك، والحج إلى البيت خاصة. والحجّ قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة[3].

ولقد شكل موسم الحج بالإضافة إلى كونه من الشعائر الدينية، ملتقى وسوقاً تجارياً مهماً عند العرب. حتى أن البعض رأى في أن الدافع الحقيقي للحج كان هو الدافع الاقتصادي. فقد عرفت العرب أن موسم الحج هو الذي يجمع الناس والقبائل، فاستغلوا هذا الوضع للتبادل التجاري. والحقيقة أن المشقات والصعاب التي كان يعاني منها البدوي للوصول إلى بعض المقامات الدينية، لم يكن فقط للتدين، بل هم سعوا إلى تسويق ما لديهم نظراً لاجتماع الناس في هذه المناسبات. فقد كانوا قبل أن يصلوا إلى مكة، قد جابوا أرجاء شبه الجزيرة العربية ومرّوا بكثير من المقامات الدينية، من دومة الجندل.. إلى هجر.. إلى الطائف.. وبكثير من الأسواق التجارية.

---

(١) سورة ٢٢، آية ٢٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٢، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ولقد اتخذ الحج إلى مكة والطواف حول الكعبة، أهمية كبرى ليس فقط لأهمية المقام الدينية، بل لأهمية موقع مكّة التجاري. لقد كانت مكّة خاتمة المقامات الدينية، وخاتمة الأسواق التجارية. لذلك لا بد من التحدث عن هذه الأسواق، ففي كل موسم حج كان هناك سوقاً ما يفتتح، فيبتدىء الحج بالأسواق، خصوصاً تلك التي كانت تنتشر بين الطائف ومكة، أي بين مقام اللات، ومقام الكعبة. قيل لعمر بن الخطاب مرّة، هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معيشتنا إلاّ من التجارة في الحج.

ومن أشهر الأسواق التي ارتبط اسمها بموسم الحج سوق عكاظ. وعكاظ نخل في واد بين مكة والطائف (أكبر وأهم مركزين دينيين في شبه الجزيرة العربية)، مستو لا علم فيه ولا جبل، حيث كانت تقوم السوق. وكان هذا المكان يعرف بالابتداء وفيه ماء ونخل، وفيه أنصاب وأوثان ملطخة بالدماء، قيل أنهم كانوا يحجون إليها ويطوفون حولها. وكانت السوق تقام في ذي القعدة الزمن الرسمي المتعارف عليه، ولكن تقاطر الناس إليها كان في شوّال. وفي العشرين من ذي القعدة تخرج الناس إلى مجنة وهي السوق الثانية لتبادل المصالح.

وسوق مجنة يقع في موضع قرب جبل يقال له الأصفر بأسفل مكّة، وكانت مدة هذا السوق عشرة أيام[1]، فإذا حلّ ذي الحجّة ساروا إلى ذي المجاز.

وذو المجاز سوق آخر مدته ثمانية أيام، يقع في موضع على فرسخ من عرفة.

وفي نهاية الأيام الثمانية، أي في الثامن من ذي الحجة، يملأون أوعيتهم من الماء لما بعده ويرتوون منه، لأنه لا ماء في عرفه. وكان هذا اليوم أي الثامن

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢١.

(٢) سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٣٠٠.

من ذي الحجة يسمونه يوم التروية. وإلى سوق ذو المجاز كانت تتقاطر وفود العرب من الحجاج والتجار، ممن شهد الأسواق وممن لم يشهدها وأتى للحج خاصة، فإن ذا المجاز كان من مواسم الحج عندهم.

هذه الأسواق التي ذكرنا، ارتبط اسمها باسم الحج، وكادت أن تكون أحد شعائره في الجاهلية، حتى أن قريشاً كانت تقول: «لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذا المجاز إلاّ محرمين بالحج»[1].

ب ـ الوقوف:

بعد أن تنتهي هذه الأسواق، وآخرها ذا المجاز في الثامن من ذي الحجة، يبدأ الحج في التاسع منه إلى مكة، ومباشرة إلى عرفة، حيث يقضون بالوقوف عليه شعيرة من أهم شعائر الحج الدينية.

ويشبه «ولهوزن وسميث» هذا الوقوف على عرفة، بمنظر أولئك الذين يلتفون حول المذبح في خشوع، والعتائر مسطحة على الأرض، وذلك يكون إمّا عند انتهاء الذبح مباشرة أو أثناء هذه العملية، والدماء تسيل في الضبضب أو يلطخ بها السادن رأس النصب[2].

ويقارن بعضهم بين الوقوف بعرفة عند العرب الجاهليين، والوقوف على جبل سيناء عند اليهود، حيث كان يتجلى معبودهم بالبرق والرعد[3]. وربما كان معبود العرب في عرفة هو نفسه إله «المزدلفة» قزح، إله البرق والعواصف والرعد والغيث، حيث كانت تشعل النيران في مزدلفة.

أما تسمية عرفة، فقد قيل فيها الكثير، منها أنه أثناء تعليم جبريل لإبراهيم الشعائر، قال له عندما وصل إلى ذلك الموضع: قد عرفت. ومنهم[4] من ردها

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٣٢.

(٢) ص ٣٤٠، Religion of. The Senites، مقتبسة عن محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤٩.

(٣) ص ٢٠٠، ج ٢، Enc. of. Islam. مقتبسة عن الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤٩.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٨٤.

إلى أن الناس يتعارفون هناك، أو أنهم نتيجة ما يعانونه للوصول إلى هذا الموضع، فقد وصفوا بالصبر، والعرف هو الصبر. وقيل أيضاً أنه سمّي كذلك، لأن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف[1].

وبعد أن يقضي الناس يومهم بعرفات، ينتقلون مسرعين إلى المزدلفة قبل غروب الشمس. وعندما يصلون المزدلفة، وهو موضع قريب من عرفه، يقضون ليلتهم متعبدين، بينما تكون نيران «قزح» ملتهبة هناك، وينتظرون شروق الآلهة. وكانوا لا يفيضون من «جمع» حتى تشرق الشمس على «ثبير»[2]، ويقولون: «أشرق ثبير كيما نفير»[3]. وثبير جبل بمكة، يستعجلون إشراقه أي طلوع الشمس عليه حتى يسرعوا في النحر والتضحية.

وهكذا مع طلوع الشمس يذهبون إلى وادي منى حيث يرمون الحجارة في أماكن معيّنة، إمّا رجماً للشيطان، أو تغطية لذلك المكان خوف أن يزرعها أهل مكة. وهناك في منى يباشرون الذبح وتقديم الأضاحي وما أكثرها، حتى قيل إن اسم منى إنما عنى ما يمنى به من الدماء التي تراق فيه.

ج ـ الذبح:

وهو عادة تقديم الأضاحي والقرابين، وكثيراً ما طالت ليس فقط الحيوانات بل حتى أيضاً الإنسان. ونحن نعرف كيف أن عبد المطلب كاد أن يذبح ابنه عند هُبَل، وكيف أن أحد ملوك الحيرة (المنذر) من المناذرة، قد ضحّى ذبحاً بابن أحد ملوك الغساسنة لأجل العزى.

وقد يكون لعادة الذبح معنًى ما عند العرب وعند الشعوب السامية عموماً، وربما كان وراءها فلسفة ما لا ندركها. لكن الظاهر أنها في جوهرها

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٤٦.
(٢) راجع صحيح البخاري، ج ٥، ص ٥٣.
(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٩١٧.

كانت تعني تقرباً من الإله ووفاء لنذورات أقاموها له، وكانوا يعتبرون المضحّى به ضيفاً على الإله، لكنها عنت في منحى آخر قساوة ووحشية لا تفسير لهما.

ومن اعتقاداتهم في هذه المسألة، أنهم كانوا يرون في التضحية عاملين رئيسيين:

١ ـ نقل الدم الحار من المُضحّى به إلى المعبود، ولذلك كانوا يصبّون ويلطخون رؤوس الأصنام بدماء الضحايا وذلك طلباً لرضى الآلهة.

٢ ـ انحلال لحم الأضحية ودمها في لحوم العباد ودمائها.

وأقدم وصف وصلنا لعملية الذبح وتقديم الأضحية، هو ما نقله الأب لويس شيخو عن ما جاء به نيلوس سنة ٤١٠ م:

يقول الأب شيخو واصفاً هذه المناسك، نقلاً عن نيلوس: «وليس لهؤلاء الهمج دين، إلاّ أنهم يكرمون كوكب الصبح (العزى) ويخرون له ساجدين، ويضحون له أجود أسراهم الذين أخذوهم في الغزوات، وهم يفضلون لذلك الشبان إذا كانوا في عز الشباب، وصبيحي الوجوه. ويعدون لهذه الغاية مذبحاً من الحجارة والصخور التي يكوّمونها وينتظرون الفجر حتى إذا لاح كوكب الصبح يضربون الضحية بالسيوف ويشربون دمها. وعادتهم إذا لم يقع في يدهم أحد من الأسرى، أن يضحوا ناقة من العيس خالصة البياض، فينيخونها ويدورون حولها ثلاثاً، ثم يتقدم كاهنهم أو زعيمهم بكل رونق، وهم يتغنون بأغانيهم، فيضرب بسيف أوداج الناقة، ويتلقى دمها فيشربه ثم يركض الباقون، ويقطع كل منهم قطعة من الذبيحة فيأكلونها نيئة ويسرعون في ذلك لئلا يبقى شيء من الجزور حتى الجلد والعظام عند طلوع الشمس»[1].

وظاهرة التضحية بالإنسان ربما كانت نتيجة رؤيا أو وفاءً لنذورات معيّنة،

---

(١) الأب لويس شيخو، النصرانية وآدابها، ص ١٦.

ولكنها كانت تغذى عند العرب بأضحية حيوانية كما في قصة عبد المطلب والتضحية بابنه عبد الله.

وكذلك قصة إبراهيم والتضحية بأحد أبنائه نتيجة رؤيا منامية حلّت عليه، فافتداه الله، بعد أن أثبت القرآن صحة وصدق الرؤيا، بكبش، وكان قوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[1].

لكن بعض العرب ثابر على تقديم الأضاحي البشرية ليس في مناسبات عرضية فقط بل في مناسبات محدّدة ثابروا عليها كل سنة، وفي ذلك ينقل الأب شيخو عن بروفيروس الفيلسوف الوثني (٢٠٠ م) قوله: «إن أهل دومة الجندل كانوا كل سنة يضحون لآلهتهم رجلاً ثم يدفنونه بقرب المذبح»[2].

ومن أقدم المذابح عند العرب كان حجراً ضخماً من الحجارة أو ركاماً تسفك عليه دماء العتيرة. هذا السفك البسيط على هذا الركام أو ذاك الحجر يقدس الذبح ويجعل العتيرة قرباناً شرعياً. وبهذا لا يكون فرق بين المذبح العبراني البسيط وبين النصب أو العزي العربي[3].

وتعتبر الأضحية من مراسم الحج في الإسلام وذلك تيمناً بتضحية إبراهيم وافتداء ذلك بكبش يقدم بديلاً عن ابنه. وهكذا جرت العادة فكل حاج عليه أن يضحّي بذبيحة يوم النزول عن عرفة وتقدم هذه الأضحيات وتوزع على المساكين والمحتاجين.

هـ ـ تقصير الشعور:

المراسم الأساسية للحج عند عرب الجاهلية، كانت تبدأ من الوقوف على عرفة، ثم الإفاضة إلى المزدلفة وبقاؤهم ليلة موقدين النار، ثم نزولهم إلى منى حيث التضحية والرجم، ومن ثم تبع ذلك تقصير الشعر وفك الإحرام. وكانوا

---

(١) سورة ٣٧ آية ١٠٨.

(٢) الأب شيخو، النصرانية وآدابها، ص ١٦.

(٣) ص ٣٧٠ Religion of. The Semites، مقتبسة عن الميثولوجيا عند العرب، ص ١٥٤.

قبل الحج يلبدون شعرهم، حتى وصولهم إلى منى. وقد ذكر الأخباريون عادات أهل اليمن في حلق رؤوسهم بمنى وفيها قبضة دقيق، حيث كان أناس من أسد وقيس ينتفعون من الشعر ومن الدقيق الموجود فيه.

لكن عملية الحلق هذه لم تقتصر على منى فقط، بل إنّ كثيراً من العرب من لم يكن يرى أن حجته قد تمّت إذا لم يحلق شعره عند صنمه. ويروي ابن الكلبي عن رجل من قريش قوله: «كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها. . . يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه (صنم مناة) فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده. لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك»[1].

وقص الشعر وتقصيره عادة بقيت عند العرب حتى بعد دخول الإسلام، لا بل هي من جملة العادات التي يقوم بها من يحج إلى بيت الله الحرام.

و ـ العمرة والسعي:

ـ العمرة والاعتمار لغة، القصد، كالحج، وهي سُمّيت بالحج الأصغر، وعملاً كما قال الزجاج: الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[2]. وهي تختلف عن الحج بأنها ليست محدودة بمرة واحدة في السنة، فإنه يمكن القيام بها في أشهر معروفة: شوّال، ذي القعدة، وعشرة من ذي الحجة.

وفي العمرة إحرام أيضاً، وهي تقضي الطواف حول البيت، ولا يمكن أن يقوم بها أحد في شهر الحج. وغالباً ما كانوا يعتمرون في رجب، وذلك لأجل حرمة هذا الشهر حيث كانوا يفدون إلى مكة آمنين على نفوسهم وأموالهم عند الاعتمار.

أما السعي بين الصفا والمروة، فعادة وثنية قديمة. وكان على الصفاء والمروة الصنمان أساف ونائلة، يسعون بينهما ويتمسحون بهما. وبعضهم يعيد

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٤.

(٢) تاج العروس، ج ٣، ص ٤٢٢.

هذه العادة إلى هاجر زوجة إبراهيم وأم ولده إسماعيل، والتي أخذت تسعى للماء حتى وجدتها في مكان يدعى زمزم بين الصفا والمروة. وقد بقيت هذه الشعيرة في الإسلام، ومع أن الكثيرين تهيبوا القيام بها لأنها عادة وثنية فقد جاءت الآية التي تقول: **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾**[١].

ز ـ الطواف والتلبية:

يقال إن الطواف عند العرب بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون فمنهم من يطوف عرياناً وهم الحلّة، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الحُمْس من قريش وكنانة وخزاعة. ويصف الأزرقي عملية طواف العريان بقوله: يبدأ بإساف فيستلمه، (يعتنقه) ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائله، فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها، فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً»[٢].

ومن الكعبات التي كانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، كعبة ذو الخلصة وهي الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهي بيت صنمهم اللات.

ومن طقوس الحج أيضاً، التلبية، والتهليلات التي كانوا يرددونها، ولا يستبعد بعض الباحثين من أن تكون هذه التهليلات والتلبيات، هي تطور لصراخهم الذي كان يصطحب قتل الضحية، والذي يمكن أن يكون في شكله الأول نوع من الندب على موتها. ويرى «سمث» إن هذا الندب الذي اتخذ شكل مديح مرتل ـ كما وصف نيلوس، قد انحط إلى ترديد للكلمة: «لبيك» لا معنى له. وهو يرى أيضاً أن التهليل كان يصطحب الرقص حول المذبح حيث أن الرقص في نظره والغناء ما كانا لينفصلا في العصور الأولى[٣].

---

(١) سورة رقم ٢، آية ١٥٣.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، مجلد ١، ص ١١٤.

(٣) ص ٣٤٠ ـ ٤٣١ ـ ٤٣٢ Religion of. The Senites، مقتبسة عن الميثولوجيا عند العرب، ص ١٥٧.

وكان العرب في الجاهلية يلبّون (التلبية)، وكانت لكل قبيلة أحياناً تلبيتها الخاصة، حيث كانت تقف عند صنمها وتصلي عنده، ثم تلبي وتتقدم حتى مكة، حيث كانت تلبياتهم مختلفة.

كانت قريش تلبي لإساف وتقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك.

وكانت تلبية من نسك للعزى: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أحبّنا إليك.

وكانت تلبية من نسك للات: لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى ببيتنا بنيّة ليس بمهجور ولا بلية ولكنه من تربة زكية، أربابه من صالحي البريّة.

وكانت تلبية من نسك لَودّ: لبيك اللهم لبيك، لبيك معذرة إليك، وكانت تلبية من نسك لذي الخلصة: لبيك اللهم لبيك، لبيك بما هو أحب إليك[1].

أمّا تلبية قبيلة تميم:

لبيك اللهم لبيك   لبيك لبيك عن تميم
قد تراها أخلقت أثوابها   وأثواب من وراءها
وأخلصت لربها دعاءها

أما تلبية ثقيف للات: لبيك اللهم... إنّ ثقيفاً قد أتوك وأخلفوا المال وقد رجوك.

أما تلبية نزار: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

وبقيت التلبية في الإسلام كما كانت عليه في الجاهلية من صيغة وألفاظ،

---

(١) كل هذا مقتبس عن كتاب شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ٩٤.

مع اختلاف إلى من نتوجه، أي التوجه نحو الإله الواحد المطلق خالق السموات والأرض.

ح - النسيء والحُمْس:

النسيء في اللغة يعني التأخير، وإذا نسأت الشيء أي أخرته.

وجاء في السيرة لابن هشام: «كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من أشهر الحرام، ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، ويؤخرون ذلك الشهر»[1].

فمن المعروف أنّ هناك أشهراً حرماً، يلقي فيها العربي سلاحه، فلا يغير، ولا يطالب بثأر ويأمن جانب القبائل كلها حتى ولو كان بينه وبينها عداوات. وخلال هذه الأشهر الحرم كان العرب يخرجون إما للحج وإما للتجارة، وإما للانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن موقع أفضل، وخلالها كانت تقام أعظم أسواقهم.

بيد أن بعض العرب لم يتقيد بقدسية وإحرام هذه الأشهر الأربعة، فخرقوا القاعدة واستباحوا المحرّمات، واستحلّوا المظالم في الأسواق، وأجازوا الأخذ بالثأر، ولذلك سمّوا بـ «المحلّين». فأنكر عليهم البعض ذلك ونصبوا أنفسهم لنصرة المظلوم، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر، فسموا بـ «الذادة المحرّمين».

وقد حدثت بعض الأمور المحرّمة حتى في أيام الحج، منها ما فعله الشنغري عندما قدم للحج، وكان في منى وقيل له أن بها حرام بن جابر، وهو قاتل أبيه، فشدّ عليه وقتله وأنشد يقول:

قتلت حراماً مهدياً بملبد ببطن منى وسط الحجيج المصوت[2]

(١) ابن هشام، السيرة، ص ٢٩.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ١٣٤.

ولما رأوا أن الأشهر الحرم طالت وقد تضجرهم وتقعدهم عن تحصيل رزقهم بالإغارة وغيرها، فقد طلبوا من بعض كهانهم وعرافيهم وأسياد وأشراف بيوتاتهم الدينية أن ينسئوا لهم شهراً من أشهر الحرام. فيحلون شهراً محرماً ويحرِّمون شهراً محللاً. ورد في الأمالي: «كانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال: أنا الذي لا أعاب ولا يرد لي قضاء. فيقولون له إنسئنا شهراً أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر. ذلك لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفراً. فإذا كانت السنة المقبلة حرّم عليهم وأحلّ لهم صفراً». (١)

ومن القبائل العربية من كان يحرم ثمانية أشهر وهي البسل، وكان ذلك لبني لؤي من بني العرب كل سنة. وقد عرفت العرب لهم ذلك، وكانوا يخرجون ولا يخافون شيئاً.

أما الحُمْس، أي المتشددين بالدين، فقد ابتدعت ذلك قريش، وآلت إليها الزعامة الدينية على العرب جميعاً كما كانت لها الزعامة الاقتصادية والتجارية والتي كانت تتجلى في الأسواق التي يقيمونها. ومما نسبوه لأنفسهم وتعظيماً لشأنهم بين سائر القبائل: «نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقاطن مكة وساكنها فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل، كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم»(٢).

وكانت قريش قد بدأت تترك الوقوف على عرفة والإفاضة فيها، وهم يرون لغيرهم أن يفيضوا في الوقوف، فقالوا: نحن أهل الحرم فليس لنا أن

---

(١) محمود الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٦٠، وهو ينقل هذا الكلام عن أبي علي القالي، كتاب الأمالي، ج ١، ص ٦٠٥.

(٢) ابن هشام، السيرة، ص ١٢٦.

نخرج من الحرمة. ثم ابتدعوا أموراً لم تكن، فرضوها على أنفسهم، فإذا نسكوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، ولا استظلوا الأقباب الأدم، ولم يمسوا النساء ولا الطيب، ولم يسلوا سمناً ولا ادخروا لبناً ولا أكلوا لحماً[١].

أحبوا أن يفرضوا بعض الأمور والطقوس على الذين يحجون إلى الكعبة، فحرّموا عليهم أن يأكلوا ما يأتونه معهم، وفرضوا عليهم الطواف بلباس «الحُمس»، فإذا لم يجدوا طافوا عراة، الرجال كما خلقتني يا رب، والنساء تضع الواحدة درعاً مفرجاً عليها[٢]. وقد يكون وراء هذه التحليلات والتحريمات ليس فقط أسباباً دينية، بل ربما حاولت قريش صياغة بعض الطقوس الدينية لمنافع تجارية اقتصادية. وما قول عمر، وهل معايشهم (أهل قريش) إلا من التجارة في الحج، خير دليل على ما نقول.

وأخيراً نقول إن للعرب في الجاهلية طرقهم الخاصة في العبادة، ولهم طقوس وشعائر ربما كانت مستمدة من صميم البيئة التي كانوا يعيشون فيها. لقد حرّموا ما كان من عاداتهم أن لا يقوموا به، وخلعوا على ذلك معاني دينية. ولقد حللوا ما كانوا يقومون به، وأضفوا عليه قدسية دينية.

وليس من الصعب والحال كذلك أن نرى تعدد هذه الأنواع من الطقوس والشعائر، والتزام البعض بها من دون البعض الآخر. إلى أن جاء الإسلام وقضى على الروحية التي كانت تقوم عليها هذه العبادات والشعائر، مع أنه استبقى منها الكثير، إنما مع توجه مختلف، ومضمون يبتعد عن الجسمية والوضعية، نحو روحانية مطلقة، وتنزيه مطلق لإله واحد أحد، لا شبيه له وليس كمثله شيء.

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٩٨.
(٢) ابن هشام، السيرة، ص ١٢٨.

المصادر والمراجع

I ـ المصادر:

١ ـ إبن منظور: لسان العرب، دار صادر.

٢ ـ إبن خلدون: المقدمة، تحقيق الدكتور عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٥٧.

٣ ـ إبن هشام: السيرة النبوية، تحقيق السقّا، الأبياري، الشلبي، دار الكنوز الأدبية.

٤ ـ إبن كثير: البداية والنهاية، طبعة مصر، ١٣٤٨ هجرية.

٥ ـ إبن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، دار المعارف.

٦ ـ إبن العبري: تاريخ مختصر الدول.

٧ ـ إبن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت.

٨ ـ إبن قتيبة: الميسر والقداح، القاهرة ١٣٤٢.

٩ ـ البخاري: صحيح البخاري، طبعة مصر، المطبعة المنيرية، القاهرة ١٣٤٨ هـ.

١٠ ـ الشهرستاني: الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨.

١١ ـ الخربوطلي: تاريخ الكعبة، دار الجيل بيروت، ١٩٧٦.

١٢ ـ البيروني: كتاب الآثار الباقية، طبعة ليبزك ١٨٧٨.
١٣ ـ الزبيدي: تاج العروس، طبعة مصر، ١٣٠٦ هـ.
١٤ ـ الزمخشري: الكشاف، دار المعرفة بيروت.
١٥ ـ الطبري: تفسير الطبري، طبعة بولاق، ط ٢، ١٩٥٦.
١٦ ـ القزويني: عجائب المخلوقات، جوتنجن ١٨٤٩.
١٧ ـ الأصفهاني: الأغاني، دار الفكر للجميع، بيروت.
١٨ ـ النهروالي: الإعلام بأعلام البيت الحرام، ليبزك ١٨٥٧.
١٩ ـ المسعودي: مروج الذهب، دار الأندلس بيروت، ١٩٦٥.
٢٠ ـ الأزرقي: أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، مدريد أسبانيا، د. ت.
٢١ ـ الهمداني: صفة جزيرة العرب، نشرة المؤرخ محمد عبد الله بن بلهيد النجدي، القاهرة ١٩٥٣.
٢٢ ـ الألوسي: بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٢٤.
٢٣ ـ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف ١٣٨٥ هجرية.
٢٤ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار صادر، بيروت ١٩٧٧.
٢٥ ـ طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، حيدر أباد ١٣٢٨.
٢٦ ـ هشام بن محمد الكلبي: الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٥.
٢٧ ـ التيجان في ملوك حميرْ: نشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء طبعة ٢، ١٩٧٩.
٢٨ ـ ديوان السموأل: دار صادر ـ بيروت.
٢٩ ـ ديوان النابغة: المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
٣٠ ـ ديوان عنترة: مكتبة كرم، دمشق.

II ـ المراجع:

١ ـ بطرس البستاني: دائرة المعارف.

٢ ـ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت، ط ٢، ١٩٧٨.

٣ ـ جرجس داود داود: أديان العرب قبل الإسلام، مجد، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨.

٤ ـ جرجي زيدان: أنساب العرب القدماء، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٢٩.

٥ ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مكتبة الحياة، بيروت.

٦ ـ جورج قرم: تعدد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار بيروت، ١٩٧٩.

٧ ـ سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت ط ٣، ١٩٧٤.

٨ ـ علي الخربوطلي: تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٦.

٩ ـ الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٢.

١٠ ـ محمد حسين هيكل: حياة محمد، مكتبة النهضة، القاهرة، ط ١٣، ١٩٦٨.

١١ ـ الموسوعة الإسلامية.

١٢ ـ محمد خان: الأساطير العربية في الإسلام، القاهرة ١٩٣٧.

١٣ ـ محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية، طبعة مصر، ١٩٢٣.

١٤ ـ محمد أركون: العلمنة والدين، دار الساقي، لندن ١٩٩٠.

١٥ ـ محمد أركون: الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، دار الساقي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢.

١٦ ـ محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩.

١٧ ـ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د. ت.

١٨ ـ صادق مكي: ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٩١.
١٩ ـ فيليب حتي: تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط ٥، ١٩٧٤.
٢٠ ـ عبد الحليم عويس: لا نزاع بين العلم والدين، دار النفائس بيروت، ١٩٨٠.
٢١ ـ واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب، نشورات مجد، بيروت ط ١، ١٩٨١.
٢٢ ـ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف مصر، ط ٣، ١٩٦٠.
٢٣ ـ لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩، ط ٢.
٢٤ ـ ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وتنميتها التاريخية، دار المعارف، مصر.
٢٥ ـ الأب لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت ١٩٢٦.
٢٦ ـ فؤاد علي رضا: أم القرى، مكة المكرمة.
٢٧ ـ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة مصر، ١٩٧٠.
٢٨ ـ مجلة المشرق: دار المشرق، بيروت، العدد ٣٧.

الفهـرس